الصعود

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديب محمد

صورة المرأة في غزل المتنبي وعلاقته بها

بقلم الدكتور

حسن محمد الشماع

استاذ الادب العربي المشارك
بكلية الآداب ـ جامعة الرياض

صورة المراة في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي

تغنى الشاعر العربي بمحاسن المراة منذ اقدم العصور . واشاد بمفاتنها ، ووصف حركاتها وسكناتها ، في حلها وترحالها ؛ وبكاها احر البكاء عند فراقها ؛ ووقف عند ديارها يتشوق اليها ؛ ويحن لساكنيها ، ثم عرض لمغامراته معها ونظم ذلك كله نشيدا احله صدر قصائده ، وافتن في اختراع اروع الصور ، يعبر بها عن عواطفه ، بأرق الالفاظ واعذبها ، مسترفدا خياله الواسع سمة الصحراء ، ومستعينا باقرب الايقاعات الى القلب ، فجاء شعره متناسقا في شكله ومضمونه ، ورددته الهضاب والوديان ترداد الافواه والقلوب عبر الزمن .

ولا غرو ان تحتل المراة هذه المكانة المحببة ، فهي النصف الجميل المكمل للرجل ، بها يبني سعادته ومعها ينشيء مجتمعه الصغير ، وبتعاونها معه يذلل مصاعب الحياة ، واليها يلجا عند الشدائد ، يستعين بها على قهر المصاعب ، وهي فوق هذا وذاك شريكة له في حربه وسلمه ، وفي بؤسه ورخائه .

والدفاع عن المراة واجب مقدس ، سنة يتسابق لتطبيقها الفرسان ورجال الحي المغاوير ، لذا فهي تحتل اغر مكان في تاج القبيلة وكيانها . تلك كانت مكانتها . وذلك دورها في العصر الجاهلي.

اما حديث الرجل مع المراة في شؤون القلب ، ووصف محاسنها ، والتشوق اليها ، وعرض المحاولات العاطفية التي تربط بينهما ، فكل ذلك يطلق عليه النسيب او التشبيب او الغزل ، ويتنوع هذا بتنوع طبائع البشر ، منه العفيف النزيه ، ومنه الماجن الخليع ، ثم منه الشريف في لفظه ومعناه ، ومنه المبتذل الرخيص ، ولكل لون مدرسة وشعراء ينتمون اليها .

وفي رحلتنا مع المراة في الشعر العربي تطالعنا صور امرىء القيس لها كما ارادها العربي آنذاك ؛ لا يجاوز ابعاد انوثتها المادية او المحسوسة :

فَتِلكَ التي هَامَ الفُؤادُ بحبِّهَا
مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ دُرِّيَّةُ القُبُلِ(١)
رَدَاحٌ صَمُوتُ الحِجْلِ تَمشِي تَبخْتُراً
وَاخرَاخَةُ الحجلينِ يَصْرُخنَ في زَجَلِ(٢)

وهذه التي هام الفؤاد بحبها عاد اليها في موضع آخر من قصيدته ، فقال وقد جمع اعضاءها بعين خبير على نحو فريد :

حِجازيةُ العينين مكيةُ الحَشَا
عراقيةُ الأطراف رومية الكَفَلْ
تهاميةُ الأبدانِ عَبْسِيَّةُ اللَّمى
خُزَاعِيَّةُ الأسنانِ دُرِّيَّةُ القُبُلْ(٣)

---

(١) مهفهفة : لطيفة غير سمينة ، درية القبل : كان مكان التفبيل منها ، وهو الثغر در منظوم . (ديوان امرىء القيس ، ص ١٨٩) .
(٢) رداح : عظيمة الكفل ، صموت الحجل : ممتلئة الساقين فلا يسمع لخلخالها صوت . المصدر السابق ص ١٩٠ .
(٣) انظر ديوان امرىء القيس ، ص ١٩١ .

WWW.ATTAWEEL.COM

وقد تمثلها طرفه بن العبد تمثلا كاملا ، فقال في وجهها :

ووجـــهٌ كأنّ الشمسَ حلّتْ رداءَها
عليـــه نقي اللـــونِ لم يتخـــدّدِ[٤]

وقال في ثغرها واسنانها :

بادِنٌ تجلـــو إذا مـــا ابتسمتْ
عـن شتيتٍ كأقاحي الرّمـلِ غُـــرْ
بَدّلتْـــهُ الشمسُ مـن منبتِـــهِ
بَـرَداً ابيضَ مصقـــول الأثـــرْ
وإذا تضحـــكُ تبـــدى حَبَبـــاً
كَرُضَابِ المِسكِ بالماءِ الخصـــرْ[٥]

واما امرىء القيس فقد سحرته مقلتاها فقال:

لَهَـا مقلـةٌ لو انهـــا نظـــرتْ بهَـــا
إلى راهبٍ قـــد صَـامَ لله وابتَهَـلْ
لأصـــبح مفتـــوناً مُعَنّى بحُبّهَـــا
كأنْ لم يَصُمْ لله يوماً ولم يُصَـلْ[٦]

ولزهير بن ابي سلمى وصف رائع فيها ، حيث قال :

تنازعَهَا المَهَا شَبَهَاً ودرّ الـ
بحـــور وشاكهت فيها الظبـــاءُ
فأمّا ما فَويقَ العِقدِ منهـــا
فمن ادمـــاءِ مرتعهـــا الخـــلاءُ
وأما المقلتـــانِ فمن مَهَـــاةٍ
وللدُرُّ الملاحـــةُ والنقـــاءُ[٧]

على اي حال اكثر الشعراء في وصفها الوصف الذي يبرز مفاتنها باروع صورة وارق لفظ[٨] ، وهي كما رأينا نزيهة مبراة من السقوط ، على نحو ما تطالعنا به في غزل ابي الطيب : بشكل او باخر ؛ وسوف نأتي على ذكر ذلك في الفصل الاول من هذه الدراسة .

على ان صورة المراة في الشعر الماجن الخليع يغلب عليها طابع المغامرات وتمتلىء بما يطفح منه رائحة الغرائز الجنسية بأجلى صور البدائيـــة ؛ وبأسلوب يعتمد التصريح ، وكأنما تلك الاعمال التي يقدم عليها المجان آنذاك تعد فضيلة يفتخرون بها ، والا فكيف يجرؤ امرؤ القيس على التصريح في معلقته:

فمثلكِ حبلى قد طَرَقْتُ ومُرضِعٌ ... الخ[٩]

ويحتل هـذا اللون حيـزا ليس بالقليـل في ديوانه[١٠] وسوف يطالعنا ابو الطيب في الفصل الثاني من هذه الدراسة باحاديث عن مغامراته العاطفية، ولكن بحذر شديد ، وبأسلوب يعتمد على الحشمة ويتجنب الابتذال ؛ على نحو ما تقتضيه حضـــارة العصر[١١] .

واذا كانت تلك حال المراة في الشعر الجاهلي ـ صورة جميلة ؛ يزين بها الشعراء مطالع قصائدهم وعلاقاتهم بها تتخذ طابع التكريم والتقدير مـــرة والتبذل والمجون اخرى ـ فان الاسلام عندما بسط سلطانه ، كرم المراة ورفع من شانها وخصها بسورة من القرآن الكريم[١٢] ، وجعل الجنة تحت اقدام الامهات[١٣] . وكان للمراة دور كبير في الدفاع عن الدعوة الاسلامية ونشرها ، اما في الشعر ، فلم تذكر الا لماما وظهر من الغزل العفيف ، يكشف عنه شعر كعب بن زهير عندما جاء الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تائبا ، طالبا الصفح والمغفرة والعفو عند

---

(٤) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٣٢ .
(٥) الخصر : البارد ، يقول : ريقها عـــذب بارد ، طيب الرائحة كالمسك . المصدر السابق ص ٧٢ .
(٦) ديوان امرىء القيس ، ص ١٨٨ .
(٧) ديوان زهير بن ابي سلمى ، ص ٦٢ .
(٨) انظر ديوان امرىء القيس ص ١٤٩ ـ ١٥١ وديـــوان عبيد بن الابرص ص ٢٢ ، ص ٤٠ وديوان طرفـة بن العبد ، ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ومختـــارات من النابغـــة الذبياني ص ٢٥ ـ ٢٦ . وديوان زهير بن ابي سلمى ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٩) ديوان امرىء القيس ص ١٤٧ .
(١٠) انظر ديوان امرىء القيس ، ص ٦٥ ، ٩٦ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٨٩ ، ١٩٢ .
(١١) ديوان ابي الطيب المتنبي ، شرح البرقوقي ، ١٩٢/٢، ٤٥٩/٣ ، ٢١٥/٤ ، ٥١٢/٤ .
(١٢) سورة النساء ، مدنية ، وآياتها ست وسبعون ومائة .
(١٣) هناك حديث صححه المحدث الكبير محمد ناصر الدين الالباني ، في كتابه « صحيح الجامع الصغير » برقم ١٢٦٠ بلفظ : « الزمها فان الجنة تحت اقدامهـــا » وهذا الحديث يغني عن الحديث الموضوع الذي اورده العلامة مرعي الكرمي المقدســـي في كتابه « الفـــوائد الموضوعة في الاحاديث الموضوعة » بلفظ : « الجنـــة تحت اقدام الامهات » ، وانظـر مزيداً من المراجـــع والتفصيل في كتاب المقدسي المذكور ص ٩٣ ، تحقيـق الشيخ محمد الصباغ .

رسول الله مأمول(١٤) ، مادحا اياه بقصيدة بداها بمقدمة غزلية ، يقول فيها :

بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ
متيمٌ إثرها لم يُجزَ مكبولُ
وما سُعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا
إلاّ أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ
كأنهُ منهلٌ بالراحِ معلولُ(١٥)

على ذلك النحو سارت قافلة الشعراء في عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، وان كنا نقرأ في سيرة عمر ــ رضي الله عنه ــ انه منع ذكر المرأة والتغزل بها .

وفي العصر الاموي عاد ذكر المرأة ياخذ مكانه في الشعر ، بل ظهر شعراء اختص كل منهم بامرأة منحها قلبه ، ونسج فيها غرر شعره ، وهام بها وهامت به ، حتى قضيا نحبهما احيانا ، كقيس بن الملوح وليلى ، وكقيس بن ذريح ولبنى ، وغدت قصص هؤلاء اشبه بالاساطير ، واقرب الى الخرافة وان تكن قد تمثل فيها الحب العذري باجلى مظاهره، والتضحية باصدق معانيها . وها هنا يعن لي ان اقف وقفة قصيرة عند علمين من اعلام الغزل ، يمثلان نهجين متناقضين فيه : اولهما جنح الى الحب العفيف وبالغ فيه ، حتى قضى نحبه ضحية عفافة، واقصد جميل بن معمر ، صاحب بثينة ، التي يقول فيها :

إذا قلت : ما بي يا بثينةُ قاتلي
من الوجد . قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردي بعض عقلي اعش به
مع الناس . قالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا
ولا حبها فيما يبيد يبيد(١٦)

لقد كان جميل جميلا في خلقته وخلقه ، نزيها ابي النفس ، عفيفا في غزله وفي شعره شواهد كثيرة منها :

لا والذي تسجدُ الجباهُ لهُ
مالي بما دون ثوبيها خبَرُ
ولا بفيها ولا هممتُ بهِ
ما كان الا الحديثُ والنظرُ(١٧)

كانت علاقته ببثينة لا تجاوز الحديث والنظر ، وكاني بابي الطيب يتمثل عفته في قوله :

يَردُ يَدا عن ثوبِها وهو قادرٌ
ويَعصي الهوَى في طيفِها وهو راقدُ(١٨)

واما الاخر فهو عمر بن ابي ربيعة ، راس الشعراء المجان الخلعاء في هذا العصر ، ونظير امرىء القيس في مغامراته واتخاذه المراة آلة يلهو بها ، كقوله :

فلزمتُها فلثمتها فتفزعتْ
مني وقالتْ : من ؟ فلم أتلجلج
قالتْ وعبثُ ابي وحرمةِ اخوتي
لأنبهنَّ الحي إن لم تخرجِ
فخرجتْ خوفَ يمينِها فتبسمتْ
فعلمتُ أن يمينَها لم تحرجِ
فتناولتْ رأسي لتعلمَ مسهُ
بمخضب الاطرافِ غير مشنجِ
فلثمتُ فاها آخذاً بقرونِها
شربَ النزيفِ ببرد ماءِ الحشرج(١٩)

وهي صورة لموقف فاتك جريء على النساء ، جراته على العرف والتقاليد ، ونرى تلك الصورة نفسها ــ او على نحو آخر ــ عند هؤلاء الشعراء الذين لا يعبئون بالتقاليد ، ويعتمدون على قوة شخصيتهم وسطوتهم .

والغريب ان ابا الطيب ــ وكان فيه عرامة عمر ــ لم يصل الى ما وصل اليه ذلك الشاعر ، وقد فسرنا ذلك بظاهرة التحضر ، ويمكن ان نضيف اليه حرصه على الا يشوه علاقاته الاجتماعية ، وهو في منزل الامراء يجالسهم ويخالطهم .

ومهما يكن من شيء ، فاننا نكتفي بهذا العرض

---

(١٤) صدر البيت : « انبئت ان رسول الله اوعدني » ديوان كعب بن زهير ، ص ١٩ .
(١٥) المصدر السابق ، ٦ ــ ٧ .
(١٦) ديوان جميل ، ص ٦٢ .
(١٧) المصدر السابق ، ص ٨٩ .
(١٨) ديوان ابي الطيب المتنبي ، ٣٠٥/١ .
(١٩) ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص ٨٨ .

في اطار العصر الاموي ونواصل السير مع قافلة الشعر الى العصر العباسي ، فاذا الشعراء فرق ونحل منهم من اثر الخلاعة واقتناص اللذة في حانات الخمر واديرة الرهبان ، يطارح الجواري او الغلمان الهوى، ففقد شعرهم كثيرا من اسباب العفة التي الفناها عند العذريين في العصر الاموي ، وحل محلها التخنث والمجون والعبث ، وضمت تلك العصبة بشار بن برد وابا نواس ، ومسلم بن الوليد ، ومطيع بن اياس والحسين بن الضحاك ، ووالبه بن الحباب ، ومحمد ابن احمد الغساني الواواء الدمشقي ، ونصر الخبز ارزى ، وغيرهم ممن لفظتهم الارض ولفظوا اعرافها وتقاليد اهلها ، فعبثوا بالمراة واوزوا عليها حبها ، واخذوا على العشاق جهلهم بمتع الحياة واقتناص لذاتها .

وكانت ردة الفعل على تيار الخلاعة والمجون ، حركة ارادت العودة الى الشعراء العذريين ، وايصال القنوات بين مدرستهم وطبيعة العصر العباسي ، فنجحت بعض النجاح في ردع الرذيلة ، وتنزيه الشعر من بذيء اللفظ ورخيص المعنى ، ومهدت لظهور الشعر الصوفي الذي يجعل المراة محور تجلياته ومجاهداته ، ومثل هذا التيار ابن المعتز ودعبل الخزاعي ، وعلى بن الجهم . وسيد هؤلاء ورائدهم العباس بن الاحنف ، الذي ترك لنا ديوانا كاملا ، يمثل الغزل العاطفي بأجلى مظاهره ، وقصره كله تقريبا على حبيبته (نوز) والحديث عن جمالها ، وعلاقاته بها .

وفي خضم الصراع بين مدرستي الرذيلة والفضيلة ـ ان صح هذا التعبير ـ او بين شعراء المجون والخلاعة من جانب ، وشعراء الغزل العفيف الصادق ، من جانب آخر ، ظهرت فئة توسطت بينهما ، فهي احبت مرة ، واصطنعت الحب اخرى، واحلت المراة مكانا وسطا ، مبتعدة عن رخيص اللفظ ورذيل المعنى ، وحاولت اتباع نهج الشعراء القدماء في غزلهم ، فنجحت مرة واخفقت اخرى في صناعتها. ومن اقطاب هذه المدرسة ابو تمام والبحتري وابو فراس الحمداني ، ونذكر من بينهم ابا الطيب المتنبي، شاعرا اختلف محبوه في فهم او في تقويم صور المراة في شعره ومعرفة مدى حبه لها ، او تعاطفه معها .

والمراة ـ على حسب الاحصاء تحتل مطالع شعره في نحو سبعين قصيدة ؛ جلها في المديح ، وتلحظ انه يختص بواحدة من بنات حواء ـ كما فعل الشعراء من قبل ـ الامر الذي يجعلنا نحكم بان ذلك من قبيل حاجات الفن ، وليس رد فعل لموقف عاطفي ، على ان غزله يكون جزءا ليس باليسير من شعره[٢٠] ؛ ويمثل ـ مهما نقل فيه ـ جانبا من ذوق العصر .

ذلك حكم عام على اي حال ، فان عمدنا الى التفصيل فلابد لنا ان نعرض لصورة المراة التي يؤثرها في شعره وموقفه منها ، وبخاصة البدويات منهن .

الفصل الاول :

« صورة المراة في غزل ابي الطيب المتنبي »

تطالعنا صورة المراة في غزل ابي الطيب وهي بيضاء مشرقة المحيا

« لبا بنشر الدر الذي قلدت به »[٢١]

« ووجه يعيد الصبح والليل مظلم »[٢٢]

رقيقة بيضاء ، لينة الحديث ، تطمع العاشق في نفسها . لكنه ان حاول الاقتراب منها باء بالفشل، وعاد خاسئا امام كبريائها وعفتها وعزتها :

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها
وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا[٢٣]

وهي كالشمس قريب شعاعها بعيد منالها :

كانتها الشمس يعي كف قابضه
شعاعها ويراه الطرف مقتربا[٢٤]

---

(٢٠) مجموع ما قاله في الغزل في مطالع قصائده ـ وهو الغالب الاعم ـ يبلغ سبعمائة بيت تقريبا ، واما ما جاء من الغزل في ثنايا قصائده فقليل .

(٢١) صدر بيت عجزه : « ولم ار بدرا قبلها قلد الشهبا » . الديوان ٦٥/١ .

(٢٢) عجز بيت صدره : « بفرع يعيد الليل والصبح نير » . الديوان ٢٥٩/٤ .

(٢٣) من قصيدة قالها يمدح المغيث بن علي بن بشر العجلي مطلعها :

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
لاهله وشفى انسى ولا كربا
(الديوان ١٢٥/١)

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٢٥) هو ابو عيينة بن محمد بن ابي عيينة بن المهلب بن ابي صفرة ، من اطبع الناس واقربهم ماخذا في الشعر، واقلهم تكلفا . انظر : العميدي : الابانة عن سرقات المتنبي ص ١٩٠ .

وكأني بابي الطيب وقد نظر قول ابي عيينة[٢٥]:

رقلتْ لاصحابي هي الشمسُ ضوءُها
قريبٌ ولكن في تَنَاوليهـا بُعْدُ[٢٦]

وقول بشار بن برد :

او كبـــدرِ الســـماءِ غير قـريبٍ
حين يُوفي والضوءُ منـه قريبُ[٢٧]

او قول الطرماح[٢٨] :

تراهنّ عُيْونُ الناظرينِ إذا بَدَتْ
قريباً ولا يَسْطِعْنَهنّ من يَرُومُهنّا[٢٩]

الا ان الصورة عند ابي الطيب ذات حركة وتفاعل وايحاء يبعث الامـــل في نفس المحب وان استحال ذلك .

اما عن شعرها فهو طويل :

«كَسَاهَا ثيابًا غَيْرُهَا الشَّعْرُ الوَجْفُ»[٣٠]

ولونه اسود ، وهو جعد ، فيه رائحة العنبر ممزوجة بماء الورد :

حَالِكٍ كالفَدَّافِ جَثْلٍ دَجوجيِ
اثيثٍ جَعْـــدٍ بلا تَجْعِيـــدِ
ذاتِ فَرْعٍ كأنمـــا ضُـــرِبَ العنـ
ـبَرُ فيـــه بماءِ وَردٍ وعُـــودِ[٣١]

وقامتها رشيقة معتدلة :

« ولو رآها قضيبُ البانِ لم يَمِسِ »[٣٢]

رقيقة ضامرة البطن ، دقيقة الخصر :

« كل خُمْصَانَةٍ ارقُّ من الخَمْرِ »[٣٣]

وقد تعلقت به الابصار :

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الأبصـارُ فيـــه
كأنّ عليه من حَـدَقٍ نِطَاقَا[٣٤]

ذات ردف ثقيل يمسكها اذا همت بالنهوض :

يَجُذُّ بها تَحتَ خَصْرِهَا عَجُـزٌ
كأنّـــهُ من فِراقِهَا وَجِـــلُ[٣٥]

وتتكامل صورتها في هذا البيت :

وقابَلَنِي رُمَّانَتَـا غُصنِ بَانَـــةٍ
يَميلُ به بَدْرٌ ويُمسِكُهُ حِقْفُ[٣٦]

فهو كما ترى رسام ماهر ضمن لوحته حركة معبرة ، فنهوضها بازائه كشف له سرا من اسرار جمالها ، واظهر التوازن والتكامل في حركتها .

اما العين فهي الجزء الحساس المهم في تصويره للمراة ، وهي مصدر الوحـى له وهي المعبـرة عن خلجات نفس الحبيبة ، لذا فهي تحتل اوسع مساحة من غزله ، وتقدم اروع فنه ، ولا غرو في ذلك فالعين هي مستودع الجمال ، واظنك توافقني عندما اعرض لك بعض صورة في رسم العيون ، وتعبيراتها . ولعل في تصنيفها من حيث فعلها في النفوس يصلح اساسا لذلك العرض ، فهناك العيون القاتلة الفاتكة ، ولها النصيب الاوفر من عنايته ، ثم تليها العيون الوسيلة ثم صورة للعين المحذرة لعشاقها حيث يقول :

كلُّ مُهَجَـــةٍ كأنّ مُقَلَّتَهَـــا
تقـــولُ إياكُـــمُ وإياهَـــا[٣٧]

---

(٢٦) الجرجـــاني : الوساطـــة بين المتنبي وخصومـــه ، ص ٢١٦ .
(٢٧) المصدر السابق .
(٢٨) هو الطرماح بن حكيم بن الحكم ، من طيء ، شاعـــر اسلامي ولد ونشا في الشام ، انتقل الى الكوفة ، فكان معلما فيها ، اعتنق مذهب (الشراة) من الازارقـة ، قال الجاحظ : كان قحطانيا عصبيا . له ديوان شعر مطبوع . توفي نحو سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة . (الاعلام ، ٣٢٥/٣) .
(٢٩) الجرجاني الوساطة ، ص ٢٦١ .
(٣٠) المصدر : « ومن كلما جردتها من ثيابها » الديـوان ، ٢١/٣ .
(٣١) من قصيدة قالها في صباه ، مطلعها :
كم قتيل كما قتلت شهيـد
لبياض الطلى وورد الخدود
الديوان ، ٤/٢ .
(٣٢) عجز بيت صدره : « خريدة لو رآتهـا الشمس ما طلعت » . الديوان ٣٥٤/٢ .
(٣٣) صدر بيت عجزه : « بقلب اقسى من الجلمود » . الديوان ٤٩/٢ .
(٣٤) من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ، مطلعها :
ايدري الربـــع اي دم اراقا
واي قلوب هذا الركب شاقا
الديوان ٤٥/٢
(٣٥) الديوان ٤٠٦/٢ .
(٣٦) الديوان ٢٩/٣ .
(٣٧) الديوان ٥١٣/٤ .

فهي تحذر قلوب العشاق من مغبة صيدها ، ولعلها صورة خاصة ؛ ولم تره قط يعود اليها او يذكرها .

اما العيون القاتلة فهي تتمثل بوجه هذه البدوية الحسناء ، التي تنعم بالسذاجة والبساطة ، ولا تعرف المكر والخداع ، ولكنها ترمي قلوب المحبين دون قصد ولا ارادة بلحاظها القاتلة :

الرامياتُ لنا وهنّ نَوافِرٌ
والخاتِلاتُ لنا وهنّ غَوافِلُ(٣٨)

واخرى قتلت المحب ولم تدر انها باءت بائم :

إنّ التي سَفكَتْ دمي بجُفُونِها
لم تدرِ انّ دَمي الذي تتقلّدُ(٣٩)

وهذا البيت جمله صاحب اليتيمة(٤٠) من جيد غزله وهو قوله :

تَفَدَّتْ عليّ السابريّ ورُبّما
تَندّقُ فيه الصعدةُ السمْراءُ(٤١)

فقد اخترقت سهام عينيها الدرع السابري الذي تحصن به الشاعر وربما تكسرت الرماح دونه.

ويبدو ان المتنبي معجب بهذه الصورة ، لانه كررها باضافات يسيرة :

فدَيْتُكَ اهدَى الناسِ سَهْمًا إلى قلبي
واقتلُهمُ للدارِعِينَ بلا حَرْبِ(٤٢)

ان عينيه تصيب قلبه بلحاظها فلا تخطئه ، كما لا تنفع معها الدروع ، فهي تقتل من غير حرب .

وليس جديدا ان تخترق سهام الاحبة قلوب المحبين ، وتتركهم صرعى ضحية الحب ، لكن الجديد ان تشق السهام القلوب قبل ان تمس الجلود ، فهي ذات سحر عجيب ، يقول :

رَاميات بأسهُمٍ ريشُهَا الهُدْ
بُ تشقُّ القلوبَ قبلَ الجلُودِ(٤٣)

على ان المتنبي لم يبذل كبير جهد للفوز بهذه الصورة الجديدة ؛ فقد تمثلها وعاشها كثير عزة(٤٤) فقال :

رمتني بسهمٍ ريشه الهُدْبُ لم يُصبْ
فؤاشرَ جلدي وهو للقلبِ صادعُ(٤٥)

ومن نعم السهام انها تقتل ضحيتها فتريحها من الم الجراح ؛ الا ان هذا المحبوب رمى ضحيته بسهم لا ليقتله بل ليديم عذابه :

ورَمَى ومَا رَمَتَا يَدَاهُ فَصَابَنِي
سَهْمٌ يُعَذّبُ والسّهَامُ تُرِيحُ(٤٦)

وتلك عين ان اصابت ضحيتها ، فلا امل له في النجاة :

كلّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلامَتُهُ
إلاّ فُؤَادًا دَهَتْهُ عيناها(٤٧)

ووسائل قتل المحبين كثيرة ، فهن يقتلن بحليهن ، كما يقتل الطاعن بالرمح ، وبعيونهن التي تعمل عمل السيوف ، لذا سميت اغطيتها جفونا :

من طاعني ثُغَرِ الرجالِ جَاذِرٌ
ومن الرماحِ دَمَالِجٌ وخَلاخِلُ
ولذا اسمُ اغطيةِ العيونِ جُفُونُهَا
من انها عَمَلُ السيوفِ عَوامِلُ(٤٨)

وعن هذا المعنى قال الثعالبي : « انه في نهاية الحسن واللطف لو ساعده اللفظ »(٤٩) اما ضحايا الحدق النجل ، فلا امل لهم في الشفاء ، وداؤهم عياء ، مات به المحبون :

عَزِيزٌ أسىً من داؤه الحَدَقُ النُجلُ
عَيَاءٌ به مَاتَ المُحِبُّونَ من قَبْلُ(٥٠)

---

(٣٨) الديوان ٤٥٥/٣ .
(٣٩) الديوان ٥٩/٢ .
(٤٠) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ١٧٩/١ .
(٤١) الديوان ١٤/١ .
(٤٢) الديوان ٥٠/١ .
(٤٣) الديوان ٤٤/٢ .
(٤٤) هو كثير بن عبدالرحمن بن ابي جمعة الاسود بن عامر الخزاعي ، الشاعر المشهور يكنى ابا صخر ، احد عشاق العرب المشهورين وهو صاحب عزة بنت جميل ابن حفص بن اياس . وله معها حكايات ونوادر ، واكثر شعره فيها . جعله ابن سلام في الطبقة الاولى ، وكان قصيرا دميما ، وكان مدعيا ولم يكن عاشقا . توفي في سنة خمس ومائة (الاغاني ، ٢٥/٨ ـ ٤٢) .
(٤٥) انظر العميدي : الابانة عن سرقات المتنبي ، ص ٢٧ .
(٤٦) الديوان ٢٧٧/١ .
(٤٧) الديوان ٥١٤/١ .
(٤٨) الديوان ٤٥٨/٣ .
(٤٩) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٥٠/١ .
(٥٠) الديوان : ٢٧٠/٣ .

ونحن مع ضحايا العيون ، اود ان اطلعك على مقدرة ابي الطيب المتنبي على اقتناص المعاني وهو في صباه ، وسهرها في بوتقته واخراجها بحلة قشيبه ونغم رائع فقد وقع على قول نصر الخبز ارزى(٥١)، ان سمع قول العميدي :

وأسقَمَتني حتى كأنّي جُفونُه
وأثقَلَتني حتى كأنّي رَوادِفُه(٥٢)

وقول محمد بن ابي زرعه الدمشقي(٥٣) :

اسقَمَتني طَرفُه وحَمَّلَتني
من الهَوَى ثِقلَ ما تحوي مآزِرُه(٥٤)

ثم قال المتنبي :

أعارَني سُقمَ عينَيه وحَمَّلَني
من الهَوَى ثِقلَ ما تحوي مآزِرُه(٥٥)

واضاف :

يا من تَحكَّمَ في نَفسي فعَذَّبَني
ومَنْ فؤادي على قَتلي يُضافِرُه

ومن العيون القواتل تلك التي أمنت قلوب العشاق من فتكها :

فلو طُرِحَتْ قُلوبُ العِشقِ فيها
لما خافَتْ من الحَدَقِ الحِسانِ(٥٦)

اما العيون الوسيلة ، فهي اكثر رقة واخف وطأة من سابقتها ، تارة هي سبب للعشق فمن يرى تلك الاحداق الحسان ، فلابد ان يسقط صريع الهوى ، وان كان قد تحصن ضد آفاته :

وما كنتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشقُ قَلْبَه
ولكنْ مَنْ يُبْصِرْ جُفونَكِ يَعْشَقِ(٥٧)

وتارة اخرى هي وسيلة لتذليل الصعاب ، يقول :

ومِن خَلِقَت عَيْنَاكَ بين جُفونِه
أصابَ الحُذورَ السَّهْلَ في المرتقى الصَّعْبِ(٥٨)

وثالثة هي شر الدواهي ، عندما تكون سببا لافساد الرسول وخيانته ، يقول :

أفسَدَتْ بيننا الأمانات عَيْنا
هَا وخانَتْ قُلوبُهُنَّ العُقولُ(٥٩)

على ان شكوى الشاعر من عيون النساء كثيرة، منها قوله :

ما بِنَا من هَوَى العُيونِ اللواتي
لَونُ اشفارِهِنَّ لَونُ الحِدَاقِ(٦٠)

كما ان حالات العيون وانواعها كثيرة ايضا ؛ فمنها العيون الحالمة ، وهي مما توصف بها الحسان كقوله :

---

(٥١) هو ابو القاسم نصر بن احمد بن نصير بن مامون البصري المعروف بالخبز ارزى ، الشاعر المشهور . وكان اميا لا يتهجى ولا يكتب . وكان يخبز خبز الارز بمربد البصرة في دكان . وكان ينشد اشعاره المفصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ويتطرفون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وامره ... توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وتاريخ وفاته فيه نظر (وفيات الأعيان ١٢/٥ وما يليها) .

(٥٢) العميدي : الابانة عن سرقات المتنبي ، ص ٣٠ والبديعي في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص ٢٠٨ .

(٥٣) وهو ابو زرعة محمد بن عثمان قاضي دمشق بعد قضاء مصر . كان جده يهوديا فاسلم ، وكان ثبتا موثقا داهية فصيحا . توفي بدمشق سنة اثنتين وثلاثمائة . قاله الذهبي في تاريخ الاسلام .

(٥٤) علق العميدي على هذا البيت بقوله : « وللمتزد في هذا البيت حلاوة وطلاوة وطراوة ، (الابانة عن سرقات المتنبي ص ٣٠) .
وجاء الشطر الثاني من البيت في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : « هواه لقلا كانني كفله » ص ٢٠٨ .

(٥٥) من قصيدة قالها في صباه مطلعها :
حاشى الوقيب فخانته ضمائره
وفيض الدمع فانهلت بوادره
(الديوان ٢٦٢/٢)

(٥٦) من قصيدة قالها في مدح عضد الدولة مطلعها :
مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
(الديوان ٨٦/٤)

(٥٧) الديوان ٥٦/٣ . وقال العميدي في الابانة : « ان المتنبي سرق معنى البيت المذكور من ابي الشيص :
دعتني جفونك حتى عشقت
وما كنت من قبلها اعشق
الابانة عن سرقات المتنبي ص ١٥٥ .

(٥٨) الديوان ٥٢/١ .

(٥٩) من قصيدة كتب بها الى سيف الدولة من الكوفة ، مطلعها :
ما لنا كلنا جو يا رسول
انا اهوى وقلبك المتبول
(الديوان ٢٢٤/٣)

(٦٠) الديوان ١٢٤/٣ .

الم يَرَ هـذا الليـلُ عينيكِ رؤيتي
فتظهَرَ فيـه رِقّةٌ وتَحـولُ(٦١)

وكقوله :

اعارَتني سقْمَ عينيـهِ وحَمّلَتني
من الهَوَى ثِقلَ ما تَحوى مآزِرُهُ(٦٢)

وفي هذا المعنى قال ابن المعتز :

ضَعيفَـةُ أجفانـهُ
والقلبُ منـه حَجَـرُ
كانمـا الحـاظُهُ
من فِعلِهِ تَعتَذِرُ(٦٣)

والبحتري :

وكأن في جسـمي الـذي
في ناظريك مـن السقم(٦٤)

وكلاهما لم يصلا الى مرتبة المتنبي ، فقول ابن المعتز ــ وان كان اجود من البحتري ــ لا يدانى قول ابي الطيب ، فسقم عين الحبيب انتقل اليه وامرضه فهو تجاوز الوصف الى الفعل ، واورد صورتين في البيت المذكور وكلتاهما ذات اثر فعال في شخص المحب بينما ابن المعتز والبحتري لم يتعديا وصف صورة واحدة .

وهذه عيون فاتنة :

وَفَتّانَـةُ العينـينِ قَتّالَـةُ الهَـوَى
إذا نَفَحَتْ شَيْخاً روائِحُهَا شَبّا(٦٥)

انها ساحرة العينين ، ذات جمال اخاذ ، اذا نفحت روائحها شيخا عاد شابا ، ولكن شاعرنا لا يسعه ان ينعم بهذا الصبا وذاك الشباب ، لانه الف المشيب واحبه ، ولم يعد قادرا على مفارقته ومن هذا القبيل تماما قوله :

خُلِقَتْ ألوفا لو رَحلتَ إلـى الصِّبا
لفارقتُ شيبي مُوجِعَ القلبِ باكيـا(٦٦)

وظاهـرة المبـالغة عند ابي الطيب تتجلى في اللحظين (فتانة) و (قتالة) ، وتلك القدرة الخارقة الكامنة في روائحها ، حيث تعيد الشيخ الى صباه .

وثالثة عيون ساحرة :

بما بجفنيكِ من سِحْـرٍ صِلي دَنِفا
يَهْوَى الحياة وأما إنْ صَددتِ فلا(٦٧)

لقد اضفى المتنبي على اول البيت واخره قوة وشدة فبداه بالقسـم وختمه بـ (لا) النافيـة ؛ القاطعة في النفي ؛ فهو يهوى الحياة ويحبها لا حبا لها وانما من اجلها ، ليواصلها ، ليعيش بقربها ، فان ابت ذلك فلا خير في الحياة ، بل لا مطمع لـه فيها . ويبدو ان ابا الطيب وقف على قول دعبل(٦٨):

مـا أطيبَ العيشَ فامشـا علـى
الا أرى وجْهَـكِ يـوما ، فَـلا
لو انّ يـوما مِنـكِ او ساعَةً
تُبـاعُ بالدنيـا إذنْ مَا غَلا(٦٩)

فأعجب به ونسج على منواله .

ورابعة عيون رشأ استمارتها بدوية لتفتن بها المحبين ، حيث سارت ، واينما نزلت :

في مُقلتـي رَشَـأٍ تُديرُهُمَـا
بدويةٌ فُتِنَتْ بهـا الحِلَلُ(٧٠)

---

(٦١) من قصيدة قالها في مدح سيف الدولة ، مطلعها :
ليالي بعـد الظاعنين شكول
طوال وليل العاشقين طويل
(الديوان ٢٦٩/٣)

(٦٢) الديوان ٢٦٦/٢ .

(٦٣) المصدر السابق ، حاشية (١) .

(٦٤) المصدر السابق .

(٦٥) الديوان ٦٤/١ .

(٦٦) من قصيدة قالها بمدح كافورا الاخشيدي مطلعها :
كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا
وحسب المنـايا ان يكن اماني
الديوان ٥٢٨/٤ .

(٦٧) من قصيدة قالها في صباه يمدح سعيد بن عبدالله الكلابي المنبجي ، مطلعها :
احيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا
الديوان ، ٢٥٢/٢ .

(٦٨) هو ابو علي دعبل بن علي بن رزين بن سليمان يتصل نسبه بمضر ، شاعر مطبوع ، يقال ان اصله من الكوفة كان اكثر مقامه ببغداد . كان هجاء خبيث اللسان . مات في سنة ست وأربعين ومائتين (معجم الادباء ٩٩/١١ ــ ١١٢) .

(٦٩) عبدالكريم الأشتر : شعر دعبل بن علي الخزاعي ، ص ١٦٩ .

(٧٠) الديوان ١٩/٤ .

واختياره بدوية ، دليل اعجابه بالبدويات وبجمالهن ، كما سياتي ذكر ذلك في هذا الفصل .

واما عن حالات العيون فكثيرة ، منها الباكية، كقوله :

تَرنو إليَّ بعينِ الظَّبي مُجهِشَةً
وتمسحُ الطَّلَّ فوقَ الوردِ بالعَنَمِ (٧١)

واخرى حائرة ، وهي تودع الاحبة ، يراودها الخوف ويعتصرها القلق :

ولم ار كالحاظِ يومَ رحيلهم
بَعَثْنَ بكلِّ القَتْلِ مِنْ كلِّ مُشفِقِ
ادَرْنَ عُيُونًا حائِراتٍ كأنَّها
مركبةٌ احداقُها فوقَ زِئبَقِ (٧٢)

تلك هي صور المراة في غزل ابي الطيب ، فهو في وصفه لها سلك مسلك القدماء من الشعراء ، ولم يأت بجديد سوى رقة اللفظ والاسلوب ، اما المعاني فهي هي ، ظلت كما كانت .

وبالموازنة بين صورة المراة في الشعر الجاهلي، وصورتها في شعر ابي الطيب المتنبي ، لا نجد كبير فرق بينهما ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن ذوق المتنبي لم يتاثر بحضارة عصره وانما ظل متمسكا بالذوق البدوي ، فانه احب صفات في المراة احبها قبله امرؤ القيس والنابغة والاعشى وزهير وطرفة وغيرهم من الشعراء الجاهليين ، وتعليل ذلك عندنا هي نشأته الاولى في باديةالكوفة ، وتنقله في الصحراء وحياته مع الاعراب فيها :

(٧١) من قصيدة قالها في صباه مطلعها :

فيف الم براسي غير محتشم
والسيف احسن فعلا منه باللمم

الديوان ١٩٤/٤ .

وعلق الثعالبي على البيت المذكور (ترنو الي ..) بقوله : انه تشبيه حسن بغير اداة تشبيه (اليتيمة ١٨٠/١) وجاء في حاشية الديوان : ومعنى البيت من قول ابي نواس :

يا قمرا ابصرت في ماتم
ينسدب شجوا بين اتراب
يبكي فيلقي الدر من نرجس
ويلطم الورد بعناب

واحسن فيه الواواء الدمشقي بقوله :

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد ١٩٤/٤٠

(٧٢) الديوان ٦١/٣ .

تذكرتُ ما بين العُذَيبِ وبارقٍ
مجرَّ عوالينا ومجرَى السَّوابقِ (٧٣)

فالف حياة البداوة واحبها واحب الصحراء وساكنيها ، فأسرت ذوقه ، وجعلته يتمثل صور اسلافه من الشعراء ، فتغنى بها شعرا رقيقا رائعا . ظهر في غزله في الاعرابيات . واكون قد اخفيت عنك بعض الحقيقة ان لم اطلعك عليه « فله طريقة طريفة في وصف البدويات . وقد تفرد بحسنها ، واجاد ما شاء فيها »(٧٤) .

« وفضلهن على الحضريات ، واحتج لحسنهن احتجاجا بارعا ، يحببه الى النفوس ، ـ وغزله وان كان صناعيا ايضا ـ نحس كان عليه عبقة من عواطف المتنبي ، واشراقه من روحه . والسر في ذلك كما اعتقد ، ان كثره جوب الشاعر المفاوز اتاحت له الاختلاط ، بالبدويات . فانس بهن واعجب بما حوين من جمال فطري يزينه العفاف والصون »(٧٥) .

ولا بأس من اضافة سبب اخر الى تعشقه حياة البداوة فانعكس ذلك على حبه للبدويات ، تلك هي الحرية التي عاشها في قلب الصحراء ابان شرخ شبابه . هناك حيث انعدمت سلطة الاعاجم التي كرهها وثار عليها ، وراح يحرض ضدها فقد وجد فيهم الشخصية المتخاذلة »(٧٦) .

ويمتاز غزل ابي الطيب في البدويات بظواهر لعل اهمها تفضيله لهن على الحضريات لانهن يصطنعن الجمال ، فالجمال فيهن خلقة :

ما اوجهُ الحَضَرِ المستحسناتُ بهِ
كأوجُهِ البدوياتِ الرَّعابيبِ (٧٧)

كما انها لا يعرفن التكلف كالحضريات اللاتي يحتلن على الحسن ما قدرن على الاحتيال :

حُسْنُ الحِضارَةِ مجلوبٌ بتطريةٍ
وفي البداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ (٧٨)

وليس من عادتهن ان يشددن خصورهن : كما برزن من الحمام لتشخص اوراكهن :

(٧٣) الديوان ٧١/٣ .
(٧٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٧٧/١ .
(٧٥) الجندي : غزل المتنبي وحبه ، صحيفة دار العلوم ٣/ القاهرة ـ ١٩٣٦ ، ص ١٩٣ .
(٧٦) شعيب : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، ص ١٩ .
(٧٧) الديوان ، ١٨٦/١ .
(٧٨) المصدر السابق .

ولا يَرِزنَ من الحَمَّامِ مائِلَةً
أوراكهُنَّ صَقِيلاتِ العَرَاقِيبِ(٧٩)

ثم انهن فصيحات لا يمضغن الكلام غنجا وتخنثا كنساء الحضر ، ولا يعرفن صبغ الحواجب طلبا للزينة :

افدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ ما عَرَفْنَ بها
مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحَوَاجِيبِ(٨٠)

وخلاصة القول اين جمال الحضريات اللاتي كالمعيز في الالفة من جمال البدويات النافرات وكانهن الارام ؟

ابنُ المَعِيزُ من الآرام ناظرةً
وغيرَ ناظرةٍ في الحسنِ والطيبِ(٨١)

وظاهرة ثانية ، هي وصفهن بالعزة والمنعة فمن تصدى لهن لقي حتفه ، وربما سارت بهن المطي على دماء الفرسان :

سَوَائرٌ ربما سارتْ هَوَادِجُهَا
منيعةٌ بين مَطْعُونٍ ومَضْرُوبِ
وربما وَخَدَتْ ايدى المطيِّ بها
على نجيعٍ من الفُرسَانِ مَصْبُوبِ(٨٢)

وديارهن حصينة بالرماح لا بالتماويل :

ديارُ اللواتي دارُهُنَّ عَزِيزَةٌ
بطولِ القَنَا يُحْفَظْنَ لا بالتَّمائِمِ(٨٣)

والبدوية دونها الموت الزؤام ، ونار الحرب ، والخيل والسيف والرمح ، يقول :

عَدَوِيَّةٌ بدويَّةٌ من دُونِهَا
سَلَبُ النُّفُوسِ ونارُ حَرْبٍ تُوقَدُ
وهَوَاجِلٌ وصَوَاهِلٌ ومَنَاصِلٌ
وذوابِلٌ وتُوَعُّدٌ وتَهَدُّدُ(٨٤)

(٧٩) العراقيب : جمع عرقوب ، وهو العصب الغليظ فوق عقب الرجل ، المصدر السابق .
(٨٠) المصدر السابق .
(٨١) (٨٢) المصدر السابق .
(٨٣) الديوان ٢٩٩/٤ .
(٨٤) الهواجل : جمع هوجل ، وهو المفازة لا اعلام بها ، والصواهل : الخيل ، والمناصل : السيوف ، والذوابل : الرماح . الديوان ٦٢/٢ .

ولكن مع هذه المنعة والعزة ، وتلك الرماح المشرعة ، في وجه من ينتهك حرمتهن ، او يقترب من ديارهن ، فقد كانت للمتنبي صولات وجولات ، ومغامرات غرامية محفوفة بالمخاطر منها :

كم زورةٍ لكَ في الأعرابِ خافيةٍ
ادهَى وقد رَقَدوا من زَورةِ الذِّيبِ
أزورُهُمْ وسوادُ الليلِ يَشْفَعُ لي
وانثني وبياضُ الصبحِ يُغْرِى بي(٨٥)

وقد نبه الثعالبي الى حسن هذا البيت في شرف لفظه ووجدة تقسيمه ، وكونه امير شعره(٨٦) . كما جعله من قلائد نظمه . وقال ابن جني انه اخذه من مصراع لابن المعتز هو :

« فالشمسُ نَمَّامَةٌ والليلُ قَوَّادُ »(٨٧)

اما الظاهرة الثالثة فهي رقة الالفاظ ، والموسيقى الهادئة المعبرة عن هدوء الصحراء وصفائها ، والايقاع المنبعث من الحركة الرتيبة ، والنغم الجميل ، مصدره حسن التقسيم وانسجام التقطيع ، فكانه يضرب على اوتار القلوب بقوله الذي اعتمد فيه على التقسيم :

نُعَجٌ مَحَاجِرُهُ دُعَجٌ نَوَاظِرُهُ
حُمْرٌ غَفَائِرُهُ سودٌ غَدَائِرُهُ(٨٨)

فقد نسج قصة واتى باربع صور كلها في حركة ايحائية ذات ايقاع جميل ولفظ سليم ، وموسيقى مبعثها جودة التقسيم .

ولقد وصفهن بالجمال ، ولكننا نكاد لا نجد في غزله بالاعرابيات صفة تميزهن عن الحضريات ، فالعين كما يقول :

(٨٥) الديوان ١٨٨/١ .
(٨٦) يتيمة الدهر ١٧٧/١ .
(٨٧) جاء في حاشية اليتيمة على مصراع ابن المعتز ان صدر البيت هو :
« لا تلق الا بليل من تواصله » وبعد :
كم عاشق وظلام الليل يستره
لاقى احبته والناس رقاد
المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٨٨) نعج : جمع انعج ، وهو البياض ، والدعج : السواد ، والغفائر : جمع الغفارة وهي خرقة توضع على الراس ، تقي بها المراة الخمار من الدهن وقد تكون اسمها للخمائر . ديوان ٢٦٥/٢ .

في مقلتي رشأٍ تذيرُهمّا
بدويةٌ فُتِنتْ بها الحِلَلُ(٨٩)

وربما اضاف الى وصفها الاسنان وما يخالطها من المسك :

مِنْ كلّ احورَ في انيابِهِ شَنَبٌ
خَمْرٌ يُخامِرُهَا مِسكٌ تُخَامِرُهُ(٩٠)

او يضيف اليها الردف :

أعارني سُقْمَ عينيهِ وحَمَّلَني
من الهَوَى ثِقْلَ ما تحوى مآزِرُهُ(٩١)

وقد يصف العين وهي تعاني من فراق الاحبة، في حركة قلقة معبرة :

أدرنَ عيونا حائراتٍ كأنّها
مركبةٌ احداقُها فوقَ زِئبَقِ(٩٢)

واما الثغر والاسنان والريق ، فهي تمثل جزءا لا باس به في وصفه للبدويات كقوله :

ويَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تقلدنَ مِثلَهُ
كأنّ التَّراقي وُشِّحَتْ بالمباسِمِ(٩٣)

ويرى صاحب الابانة ان المتنبي وقع على معنى ابن ابي زرعة الدمشقي في قوله :

تَقَلَّدنَ ابكارَ اللآلى فاشْرَقَتْ
بِهِنَّ لآلٍ مثلهَا في المضَاحِكِ(٩٤)

والدكتور طه حسين يرى ان المتنبي لم يوفق الى الاجادة فما رايك في هذه التراقي ، التي كأنها حليت بالثغور ، لا لشيء الا لانه بين الاسنان التي تبسم عنها الثغور وبين الحلي الذي تحمل الصدور شبها في الرونق والصفاء ؟ اما انا فلا أرى في هذا التشبيه الاغرابا ينتهي الى السماجة »(٩٥) .

واني ارى ان ابا الطيب اجاد وابدع ، اذ جمع صورتين في بيت واحد ، فالشطر الاول تضمن معنى قول ابن ابي زرعة ، والثاني وصف الصدر موشحا بعقد ناصع كنصاعة اسنانها ؛ وهو معنى جميل وان كان شائعا بين الشعراء . ولو صح ادعاء العميدي على المتنبي بالسرقة ؛ فان له فضل الزيادة مع رقة السبك والاختصار .

وريقها عذب لو شبهناه بالعسل لما وفيناها حقها ، فهو ارق واحلى منه :

« مَظْلُومَةُ الريقِ في تشبيهِهِ ضَرَبَا »(٩٦)

ونكهته المسك :

ما اسَّارَتْ في القَضَبِ من لَبَنٍ
تَرَكْتْهُ وهو المِسْكُ والعَسَلُ(٩٧)

ويرى الاستاذ السقا ان فيه نظرا الى قول جميل :

فلو تَفَلَتْ في البحرِ والبحرُ مَالِحٌ
لَعَادَ أُجاجُ البحرِ من رِيقِهَا عَذْبَا(٩٨)

غير ان الذي اثار انتباهي في بيت جميل كلمة « تفل » فهي على ما فيها من ثقل ونبو وغلظة ، لا تنسجم ورقة الشعر وخاصة وهي تصدر من حسناء ، وليتها رشقتها في وجه كالح ظالم ؛ اذن لخفت المصيبة وهانت الرزية ؛ ولكنها وضعتها في البحر ليرق ماؤه ويعذب ؛ فبئس الفعل وبئس فاعله .

واعود الى وصف المتنبي للبدويات ، ففيه الاشراق ، فهي :

« بَيضاءُ تَطْمَعُ فيما تَحْتَ حُلَّتِهَا »(٩٩)

كأنّها الشمسُ يُعْي كفٌّ قابِضِهِ
شُعَاعُهَا ويَرَاهُ الطرفُ مُقْتَرِبَا(١٠٠)

هذه هي اهم الصفات التي اسبغها على البدويات ، ولا ابد ما يميزهن عن الحضريات اللهم الا قلة الاكل اذ :

« تَشْكُو المطاعِمُ طولَ هِجرَتِهَا »(١٠١)

---

(٨٩) الديوان ٤/٢١ .
(٩٠) الديوان ٢/٢٦٥ .
(٩١) المصدر السابق .
(٩٢) الديوان ٣/٦١ .
(٩٣) الديوان ٣/٢٠١ .
(٩٤) العميدي : الابانة عن سرقات المتنبي ص ١٣٦ .
(٩٥) طه حسين : من تاريخ الادب العربي ، مجلد ٣ ، ص ١٤٦ .
(٩٦) صدر البيت « مظلومة القد في تشبيهه قضبا » الديوان ١/١٢٧ .
(٩٧) الديوان ٤/١٩ .
(٩٨) نصار : ديوان جميل ص ٣٦ ، والديوان ، ٤/١٩ .
(٩٩) صدر بيت عجزه « وعز ذلك مطلوبا اذا طلبا » الديوان ١/١٢٧ .
(١٠٠) المصدر السابق .
(١٠١) صدر بيت عجزه : « وصدودها ومن الذي تصل » الديوان ٤/٢١ .

لذا فهي ارشق من الحضرية حيث وصفها بالسمنة في قوله :

إذا ماسَتْ رأيتَ لهَا ارتجاجاً
له لولا سواعِدُها نزَوعا
ذِراعاها عَدُوّاً وملجيها
يَقُلْنَ ضَجِيعُهَا الزَّنْدَ الضَّجِيعَا(١٠٢)

كما اسبغ على البدويات الرقة ونعومة البدن؛ فاذا تبخترن نقش الوشي في جلودهن مثل صورته ، وترك أثره في اجسادهن لرقتها ، كقوله :

حِسانُ التثني يَنقشُ الوشيُ مِثْلَهُ
إذا مِسْنَ في أجسامِهِنَّ النواعِمِ(١٠٣)

وربما تلك الصفة اظهر في الحضريات ، حيث قال فيهن :

تَألَّمُ درزهُ والدرزُ لين
كما تتألمُ العَضْبُ الصَّيْمَا(١٠٤)

هذه هي البدوية في راي ابي الطيب وعينه ، وهي كما ترى متكاملة الصورة ، وتحتل في نفسه حيزا كبيرا ، ولعلها من اخصب منابع الالهام عنده ، وقد اوحت له بمجموعة من الصور ، لعب فيها المجاز الدور الاكبر في تشكيل ابدع الصور واعظمها دلالة .

الفصل الثاني :

« علاقة المتنبي بالمراة »

لم يذكر المؤرخون القدماء شيئا عن علاقة ابي الطيب بالنساء كحبه لامراة بعينها مثلا او كمحاولة غرامية له ؛ مما عرف وشاع عن بعض شعراء عصره. ان تاريخ الادب لا يسعفنا براي في ذلك ومن ثم لم يبق لنا سوى ان نلجأ لشعره ؛ وبخاصة الغزل منه؛ عله يلقي بعض الضوء على ما نطمح اليه .

واول ما نلحظه ان غزل ابي الطيب يقع في مطالع مدائحه ؛ قليلا ما يرد بين ثنايا شعره ، ولا نرى عنده قصيدة غزلية مستقلة بذاتها ، ومن جانب آخر لم يذكر اسم امراة في غزله الا مرة واحدة وهي « جمل » وذلك في قوله :

إذا عَدَلُوا فيها أجبتُ بناقةٍ
حَبِيبَتُنا قَلْبًا فؤادا هَيَامُ جُمَّلُ(١٠٥)

وهو على ما يبدو اسم فني استدعته ضرورة القافية .

ومؤرخو الادب المحدثون عرضوا لهذه الظاهرة، فمنهم من قطع الصلة بين المتنبي وبين المراة ، بل ربما جعلوه عدوا لها ؛ وفريق آخر جعله العاشق المتيم ، وكل احتج بشعره ، اذ لا دليل سواه .

فالاستاذ شفيق جبري لا يرى في اضعاف هذا النسيب آثار نفس ذللها الهوى :

إذا كانَ مَدحٌ فالنَّسيبُ المُقَدَّمُ
أكلُّ فصيحٍ قال شعرا مُتَيَّمُ(١٠٦)

وانما هذا النسيب عبارة عن تشبيهات(١٠٧) او صفات ضاع رونقها لكثرة تكرارها ، فاذا لم يعشق الشاعر حقيقة ، كان نسيبه مضجرا مقلقا(١٠٨) .

والاستاذ علي الجندي يعتقد ان « تاريخ المتنبي في هذه الحقبة يبرأ من الحب براءة تامة فتراه صبيا شكس الخليقة ، حمي الانف ، كثير الاعتداد بنفسه، بعيد مرامي الهمة ، يهمس بالثورة تارة ويصرح بها اخرى ، ويتطاول الى معالي الامور ويتحدث عن آمال جسام ... الخ . فهو القائل :

أمِطْ عنكَ تشبيهي بما وكأنَّهُ
فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي(١٠٩)

ويضيف الاستاذ حسن علوان : « فلم ينفذ الى قلبه سحر المراة ، ولم تلتهب فيه عواطف الغرام ، لان نزوعه الى المجد ، وتطلعه الى الرئاسة لم يدع للمراة سلطانا على قلبه ... هذه الحياة الصاخبة الجامحة المفزعة ابت على المتنبي ان يصغى الى الحب ، وان يستجيب الى صوت العاطفة(١١٠) »

---

(١٠٢) الديوان ٤٢٧/٢ .
(١٠٣) الديوان ٣٠١/٤ .
(١٠٤) الديوان ، ٤٢٩/٢ .
(١٠٥) الديوان ، ٢٧٠/٣ .
(١٠٦) مطلع قصيدة قالها في مدح سيف الدولة . الديوان ٨٩/٤ .
(١٠٧) تركيب الجملة خطا ، صوابه يكون بحذف العبارة عن» فتصبح الجملة : وانما هذا النسيب قوامه تشبيهات ... الخ .
(١٠٨) شفيق جبري : المتنبي ملء الدنيا وشاغل الناس ، ص ١٥٠ .
(١٠٩) انظر الجندي : غزل المتنبي وحبه ، صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٢ ، ص ١٧٩ .
(١١٠) حسن علوان : المراة في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٢ ، ص ١٩٢ .

أما الدكتور طه حسين ، فهو لا يقترب من هذا الموضوع الا بحذر شديد ، وكأنه يحاول الابتعاد عنه، ولكنه عند الحديث عن رثائه لخولة اخت سيف الدولة ، بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

يا اختَ خيرِ اخٍ يا بنتَ خيرِ ابِ
كنايةٌ بهما عن اشرفِ النسبِ(١١١)

ينفي حب المتنبي لها ، ويقول عن غزله : « بل انت واجد ذوقا غليظا ، يصنع الحب والغرام صنعا، ويريد ان يكره اذواق الناس على قبول ما يصنع »(١١٢) .

وبلاشير يجعل منه عدوا للمراة ، مستشهدا بهذين البيتين :

إذا غدرتَ حسناءُ وفتْ بعهدِها
فمِنْ عهدِها ان لا يدومَ لها عهدُ(١١٣)

وقوله :

ومَنْ خبَرَ النسوانِ فالنسوانِ
ضياءٌ في بواطنِهِ ظلامُ(١١٤)

ويقول : « فالشاعر الذي يعبر عن رايه في النساء بهذا الشكل لا يستطيع الاشادة بالمراة الا مضطرا مكرها »(١١٥) .

ويرى الاستاذ الباعي بيومي ان نشأته الطامعة ورغبته في الملك ، وحبه للحرب والقتال ، ابعدته عن لهو الخمرة والنساء كما ابعدت النساء عنه عنه ، فتركهن وتركنه(١١٦) .

ويعنينا هنا راي الدكتور طه حسين لانه يحكم على غزل المتنبي جملة وتفصيلا بالغلطة واصطناع الحب والغرام . والواقع ان الشاعر صورا ومعاني في هذا الغرض لم يسبق اليها ، وهي في الرقة والعذوبة بحيث لا تثير شكا ولا نبوا وربما كان بعض تلك الصور الغزلية تعبيرا عن احدى حالات الحب الحقيقية . فهذه سورة للوداع ، فعندما ازف الفراق ، كشفت الحبيبة عن محاسنها. فصار الصبر الجميل قبيحا ، وارتفعت يد تشير بالسلام ، وثمة طرف شاخص الى وجه الحبيبة ، وقلب يذوب اسى وحزنا ودمع مسكوب :

وجَلا الوَداعُ من الحبيبِ محاسِنا
حُسْنَ العزاءِ وقد جلَينَ قبيحا
قيدٌ مُسلْمةٌ وطرفٌ شاخصٌ
وحشًا يذوبُ ومدمعٌ سفوحُ(١١٧)

ثم يصور حزنه والمه على الفراق فيقول :

يَجِدُ الحمَامُ ولو كوجدي لانبرَى
شجَرُ الاراكِ مع الحمَامِ يَنُوحُ(١١٨)

سوف نمثل بصور اخرى من روائع غزله في مكان آخر من هذا البحث ان شاء الله .

اما حكم الاستاذ بلاشير بانه عدو المراة ، ففيه تجن على الحقيقة ، فان ما يطالعنا في غزله لدليل حي على تقديره المراة والاعتزاز بها ، ولست اريد ان ابعد عن دليل بلاشير : اذا اغدرت ... الخ . ففيه الرد القاطع على ادعائه ، وما علينا الا ان نعود ثلاثة ابيات من القصيدة نفسها الى الوراء حتى ننصفه بقوله :

اسرُّ بتجديدِ الهوى ذكرَ ما مَضَى
وإنْ كانَ لا يبقى له الحجرُ الصلْدُ(١١٩)

انه يسر عندما يجدد له الهوى ذكر ايام الوصال ، وان كانت تلك الذكرى تقطع قلبه حزنا واسى ، بل يذوب لها الحجر الصلد اسفا وحنينا . وليس هذا فحسب ، بل من اجل الحبيب يلذ طعم السهاد كطعم الرقاد ايضا ، وحتى القلام الذي ترعاه ماشية الحبيبة طيب عنده كانه الورد :

سُهَادٌ انَالَنا منكِ في العينِ عندنا
رُقادٌ وقُلامٌ رعى سربُكُم وَرْدُ(١٢٠)

---

(١١١) بعث ابو الطيب بهذه المرثية من الكوفة ، عندما بلغه خبر وفاة خولة ، في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، الى سيف الدولة . الديوان ، ٩٩/١ .
(١١٢) طه حسين : من تاريخ الادب العربي ، المجلد الثالث ، ص ١٤٦ .
(١١٣) الديوان ، ١٢٢/٢ .
(١١٤) الديوان ، ٢٤٣/٤ .
(١١٥) بلاشير ، حياة ابي الطيب وشعره ، المورد ، المجلد السادس ، ١٩٧٧/٢ ، ص ٤٩ .
(١١٦) الباعي بيومي : غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٣ ، ص ١٣٤ .
(١١٧) الديوان ، ٢٧٧/١ .
(١١٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .
(١١٩) الديوان ، ١٢٢/٢ .
(١٢٠) والقلام : نبت من الحمض يكون في السباخ . المصدر السابق .

ولنتابع ابا الطيب في قوله :

مُمَثَّلَةٌ حتى كأنَّ لَمِ نفارقي
وحتى كأنَّ اليأسَ مِنْ وَصْلِكِ الوَعْدُ
وحتى تكادي تمسحين مدامعي
ويَعْبَقُ في ثَوبيْ من ريحِك النَّدُ

فهو يتصورها في خاطره ، لم تفارقه طرفة عين ، بل وكانها حاضرة عنده ، وهي تمسح بيديها الرقيقتين مدامعه ، فيعبق طيبها في ثوبه ، فهي وان بعدت عنه ، فقد سكنت قلبه .

ويبدو ان المتنبي يستيقظ ويفيق ، فيعود الى واقعه المؤلم بعد ان عاش لحظات تداعبه احلام اليقظة فيتسمر بالمرارة ويتذكر خلفها للوعد فيتمثل قول كعب بن زهير :

كانتْ مواعيدُ عُرقوبٍ لَهَا مَثَلاً
وما مواعيدُها الا الأباطيلُ(١٢١)

ويضيف الى تجربة كعب انها اذا عشقت كانت هي اشد عشقا من الرجال ، وان غضبت فلا حد لغضبها ؛ وان يغضب كان الله في عون الرجل ، ولا امل له في السعادة . وهي في هذه كله معذورة ، لان هذا طبعها ، وهي مغلوبة على امرها ، كما انها تمتاز بصفاء القلب وحسن الظن ، فان رضيت عنه ، فلا مكان في قلبها سوى الرضا . وتلك هي اخلاق النساء ، ونحن نحبها وان كان الضلال بها :

وإنْ عَشِقَتْ كانت اشدَّ صبابةً
وإنْ فَرِكَتْ فاذهبْ فما فركها قَصْدُ(١٢٢)
وإنْ حَقَدَتْ لم يبقَ في قلبِها رضاً
وإنْ رضيتْ لم يبقَ في قلبِها حِقْدُ
كذلك اخلاقُ النساءِ وربما
يَضِلُّ بها الهادي ويَخْفَى بها الرشدُ(١٢٣)

اليست هذه الاقوال صدى تجربة محب لاقى الامرين من الحبيب وعاش تقلبات الهوى وذاق حلوة ومره ؟ وهو مع ذلك لا يزال متمسكا بحبه ، راضيا به :

ولكنَّ حُبَّنا خَامرُ القلبَ في الصِّبَا
يَزيدُ على مَرِّ الزمانِ ويَشْتَدُّ

وهو لم ينته ، بل هو في غليان وازدياد مع الزمن . من ذلك كله يتبين لنا ان من الصعب الحكم على ابي الطيب بمداوته للمراة ؛ بل لعل الاصوب ان يقال ان ابا الطيب حتى اذا لم يعلق قلبه بواحدة، فانه انصف المراة ، وقدرها حق تقديرها .

على اني اوافق الاستاذ السباعي بيومي فيما ذهب اليه من ابتعاد المتنبي عن الخمرة ، واخالفه في ابتعاده عن النساء وابتعادهن عنه كحلم مطلق ، فربما ابتعد عنهن في مرحلة من حياته ، ولظروف خاصة المت به ؛ ولا استبعد ان تكون تلك الظروف ـ حبه للملك وطلب الامارة ـ جعلته يفتعل التزمت وموقف عدم الاهتمام بهن ، لئلا يتهم بالهزل ومطاردة النساء ، واقتناص اللذة ، ومعاقرة الخمرة ، كما فعل كبير الشعراء امرؤ القيس ، فضاع منه الملك. لذا هو يبتعد عن مواطن الهزل وينزع الى العظمة ، ليوهم من حوله انه اهل لعظائم الامور ويصلح ان يكون رجل دولة ، وهو في حقيقة امره شغوف بالنساء ، يحرص على حبهن ، وقد عشق كما يعشق الرجال لاسيما في صباه ، لسنا ننكر ذلك وكيف ننكره وهو المرهف الحس ، رقيق الطبع ، سريع التاثر ، شديد الانفعال ، وقد تعشق الجمال واحب الطبيعة وما فيها ، واذن لماذا لا يتعشق ابنة حواء، وهي فتنة الدنيا واجمل ما فيها من خلق الله ؟

انني استدل على حبه لهن من فلتات لسانه في شعره وما اكثرها ـ والتعبير عن حبه للمراة ، اليس هو القائل :

وكيف التذاذي بالأصائلِ والضحى
إذا لم يَعُدْ ذاكَ النسيمُ الذي هَبَّا
ذكرتُ به وَصْلاً كأنْ لم أفزْ بِهِ
وعيشاً كأني كنتُ أقطعُهُ وَثْبَا(١٢٤)

والقائل :

هذه مُهْجَتي لديكِ لحيني
فانقُصي من عَذَابِها او فزيدي(١٢٥)

والامثلة على حبه الصادق لهن كثيرة ، ولكني ساقف عند قوله :

---

(١٢١) ديوان كعب بن زهير ، ص ٨ .
(١٢٢) فركت المراة زوجها فركا : ابغضته .
(١٢٣) الديوان ١٢٤/٢ .
(١٢٤) الديوان ٦١/١ .
(١٢٥) الديوان ٦٤/٢ .

كم وَقْفَةٍ سجرتك شوقاً بعدما
غَرِيَ الرقيبُ بنا ولَجَّ العاذِلُ(١٢٦)

دُونَ التعانقِ ناحلين كشكلتي
نصبٍ ادقَّهُما وضمُّ الشاكِلُ(١٢٧)

إنعمْ ولَذَّا فللامورِ اواخرٌ
ابداً إذا كانتْ لهن اوائلُ

ما دمتَ من اربِ الحسانِ فإنما
رَوْقُ الشبابِ عليكَ ظِلٌّ زائلُ

للهو آونةٌ تمرُّ كأنها
قُبَلٌ يزُرْنَها حبيبٌ راحِلُ(١٢٨)

اليست هذه الابيات دليلا صادقا على معاناته الحب ، وانه عرفه معرفة المجرب لا معرفة الحكيم ؟ وساعود الى ذلك مرة اخرى .

اما قول الاستاذ السباعي بيومي(١٢٩) بان حبه للحرب والقتال ، ورغبته في الملك ابعدت النساء عنه فتركنه ، فهو قول لا يسعفه الدليل ، اذ لا نجد في شعره ما يشير الى ترك النساء له والابتعاد عنه ، بل العكس هو الصحيح ، فقد قال :

وللخودِ مني ساعةٌ ثم بَيْنَنَما
قَلاةٌ إلى غيرِ اللقاءِ تجابُ

وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيَّةٌ
وغيرُ بَناتي للزُّجاجِ رِكابُ

تَرَكْنا لاطرافِ القَنَا كلَّ شهوةٍ
فليس لَنَا الا بِهِنَّ لِعابُ(١٣٠)

وللدكتور سامي الدهان راي في حب ابي الطيب جاء في معرض حديثه عن غزله ، حيث قال : « وما نعرف له قلبا احب ، وهو القائل :

وما كنتُ ممن يدخل العشقُ قلبَه
ولكنَّ مَنْ يُبْصِر جفونك يعشقِ(١٣١)

فمن هي هذه الفاتنة التي احبها المتنبي ؟ اهي الدنيا ام المناصب العالية ام الثروة والطموح والمجد والعز والنصر ؟ وهل ترك قلبه مكانا للمراة فيه غير ان يلهو بذكر اسمها ليفتتح بها شعره ويعطر بها نشيده ؟ »(١٣٢) .

والاجابة عن اسئلة الدكتور الدهان ستاتي في نهاية هذا البحث .

ويقول الدكتور محمد شعيب : « ولاننا لا نجد بشعر المتنبي شواهد قوية على الحب والغرام ، لا لان المتنبي نفى عن نفسه ذلك في اكثر من موقف من مواقفه الشعرية ، بل لان منهجه في الحياة ، وما عرف به من خشونة الطبع وصعوبة الملمس ، وتوقر النفس ، يجعله بمنأى عن الغرام ... »(١٣٣) .

تلك هي مجموعة آراء اولئك في الادب الحديث تنفي عنه الحب ، وقد سقتها بين يدي البحث . اما عن ادلتهم ، فقد استنوها من شعره ، وهي على العموم لا تخرج عما بيناه : فهو اباح لنفسه ان يدعو على الخدود وعلى القدود وهذا غير معهود في اقوال العشاق(١٣٤) :

انا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُدُودِ
وَقَدَّ قُدُودَ الحسانِ القُدُودِ(١٣٥)

---

(١٢٦) سجرتك : ملأتك ، ويروى شجرتك : اي حبستك عن الكلام ، الديوان ٣/٥٩ ، وقال الثعالبي : فلم يحسن موقع قوله سجرتك (هكذا الرواية بالجيم ، ولو كانت بالحاء من السحر لم يكن باس) . اليتيمة ١/١٥٠ .

(١٢٧) قال الجرجاني : قال بعضهم :
انسي رايتك في نومي تعانقني
كما تعانق لام الكاتب الالفا
الم به ابو الطيب فقال : دون التعانق ... البيت . فكانه معنى منفرد ، ولئن اخذه منه كما يزعمون ، فما عليه معتب ، لان التعب فيه ونقله ، لا ينقص من التعب في ابتدائه . (الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٢٣٩ .)

(١٢٨) اثنى الثعالبي على هذا البيت ، وقال ان المتنبي احسن غاية الاحسان . (انظر اليتيمة ، ١/١٥٠) والعميدي جعله مسروقا من البحتري :
اغتنم فرصة من الدهر واطرب
ليس شيء من الجديدين بالي
وزمان السرور يمضي سريعا
مثل طيب العناق عند الفراق
الابانة عن سرقات المتنبي ، ص ٩٧ .

(١٢٩) انظر ص ٢٩ ، حاشية ٥ من هذا البحث .

(١٣٠) الديوان ، ١/٢١٥ .

(١٣١) الديوان ، ١/٥٦ .

(١٣٢) الدكتور الدهان ، الغزل منذ نشاته حتى صدر الدولة العباسية ٢/٥٤ .

(١٣٣) الدكتور محمد شعيب : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، ص ٢٢٧ .

(١٣٤) انظر : السباعي بيومي ، غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، صحيفة دار العلوم ٢/١٩٣٦ ، ص ١٦٩ .

(١٣٥) مطلع قصيدة ، قالها وقد وشي به قوم الى السلطان ، فحبسه ، فبعث بها اليه من الحبس . الديوان ٢/٧٤ .

ولا ارى ان المتنبي ابتعد عن مسلك العشاق . بدعاؤه في البيت المذكور على التعجب والاستحسان كما يرى ابن جني[١٣٦] . وسبقه الى ذلك جميل بن معمر بقوله :

رَمَى اللهُ في عيني بثينةَ بالقَذَى

وفي الغُرِّ من انيابها بالقوادحِ[١٣٧]

ويرى الاستاذ علي الجندي انه ازرى بالعشق في قوله :

وما العشقُ إلاّ غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ

يَمُرُّ فلبٌ تنفُثُه فيصابُ[١٣٨]

وكذلك اعلن عن موقفه من النساء ، وامتناع قلبه على سحر الغانيات بقوله :

وغيرَ فؤادي للغواني رَمِيَّةٌ

وغيرُ بناني للزُّجاجِ ركابُ

تركنا لاطرافِ القَنَا كلَّ شهوةٍ

فليس لَنَا الا بهنَّ لِعَابُ[١٣٩]

ان هذه الابيات لهي دليل على ان المتنبي عرف الهوى ، وذاق مرارة الحب وحلاوته وعاش تجاربه، فخرج بهذه النتيجة بعد ان قارب الخمسين من عمره ، فنظمه للقصيدة ـ التي وردت الابيات المذكورة ـ ضمنها ـ كان في سنة تسع واربعين وثلاثمائة ، وهو يتحدث بلسان كهل مجرب لم ير ضرورة للتظاهر بحب كاذب ، ولكن هذا لا يمنعه من ان يزين مطالع قصائده فيما بعد باجمل ذكريات حبه ايام شبابه .

كما استدل الاستاذ بيومي والجندي على عدم حبه للمراة ، عند تفضيله الرماح والسيوف عليها ، وانشغاله بالحرب عنها بقوله[١٤٠] :

مُحِبٌّ كُنَى بالبيضِ عن مُرْهَفَاتِهِ

وبالحسنِ في أجسامِهنَّ عن الصِّقْلِ

وبالسُّمرِ عن سُمرِ القَنَا غيرَ انثني

جَنَتْها احبائي واطرافها رُسُلي[١٤١]

ولو عاد الاستاذان الى تاريخ نظمه القصيدة ـ التي من ضمنها الابيات المذكورة ـ لوجدا له العذر وحمداه على صدقه ، فالمتنبي نظمها في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وهو يمدح ابا الفوارس دلير بن لشكروز ؛ وكما قلنا ان عاطفة الحب عند الشاعر ـ وقد بلغ الخمسين من عمره ـ قد تجمدت او خمدت .

والاستاذ بيومي[١٤٢] يأخذ عليه نعيه على العشاق بقوله :

مما اضرَّ باهلِ العشقِ انهمُ

هووا وما عَرَفُوا الدنيا وما فَطِنوا[١٤٣]

والواقع ان المتنبي اراد باهل العشق الذين عشقوا الدنيا وما فيها من سقط المتاع ، يدل على ذلك البيت الذي سبقه والذي يليه[١٤٤] ، وهذا ما ذهب اليه الواحدي وتبعه العكبري[١٤٥] .

كما استدل الدكتور الدهان من مبالغاته في غزله على عدم حبه فهو لن يصدق قوله حين يبالغ في العشق :

وما هي إلاّ لَحْظَةٌ بعدَ لَحْظَةٍ

إذا نَزَلَتْ في قلبِهِ رَحَلَ العَقْلُ

جَرَى حَبُّها مَجْرَى دمي في مَفَاصِلي

فأصْبَحَ لي عن كلِّ شُغْلٍ بها شُغْلُ[١٤٦]

« فهو في هذا الغزل متصنع مع اصحابه ، يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم »[١٤٧] .

---

(١٣٦) المصدر السابق .

(١٣٧) القوادح : جمع قادح ، وهو السواد الذي يظهر في الاسنان ، او ما يعرض للاسنان من آفات . وبلي البيت المذكور :

رمتني بسهم دبشه الكحل لم يضر
ظواهر جلدي وهو للقلب جارح

نصار : ديوان جميل ، ص ٥٣ .

(١٣٨) صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٣ ، ص ١٨٢ .

(١٣٩) الديوان ، ٢٢١/١ .

(١٤٠) صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٣ ، ص ١٧٠ ، ص ١٨٤ .

(١٤١) الديوان ، ٣/٤ .

(١٤٢) صحيفة دار العلوم ١٩٣٦/٣ ، ص ١٧٠ .

(١٤٣) الديوان ، ٤٦١/٤ .

(١٤٤) سبقه قوله :

لا تلق دهرك الا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به
ولا يرد عليك الفائت الحزن

واعقبه :

تثنى عيونهم دمعا وانفسهم
في اثر كل قبيح وجهه حسن

الديوان ، ٤٦٢/٤ .

(١٤٥) المصدر السابق .

(١٤٦) الديوان ، ٣٧٢/٣ .

(١٤٧) الدكتور سامي الدهان : الغزل ، ٥٥/٢ .

والاستاذ شفيق جبري يرى ان في نسيبه اثر صنعة ، لا تدل على شيء من حقيقة الهوى ، والمتنبي لا يريد الاعتراف بذلك(١٤٨) ، فيقول :

وما انا إلا عاشقٌ كلّ عاشقٍ
اعقّ خليليه العفيفيْن لائمه(١٤٩)

ثم يرجع فيقول :

وما كنتُ ممن يدخل العشقُ قلبَه
ولكنْ مَن يُبصِرْ جفونكِ يعشَقِ(١٥٠)

والدكتور احمد الجنابي يقول عنه انه « لم يستطع ان يصور خلجات النفس العاشقة ، فاسلوب العنف يغلب عليه ، ويفتقر ـ غالبا ـ الى العبارة الرشيقة الخفيفة الراعشة في اغوار الكلمات « ولا يعرف الشوق الا من يكابده »(١٥١) .

ويبدو ان الدكتور الجنابي ابتعد عن الحقيقة في حكمه على المتنبي بعدم استطاعته ان يصور ... الخ . فما رايه في قوله :

والعشقُ كالمشوقِ يعذّبُ قلبُه
للمبتلى وينالُ منّ حَوبائِه(١٥٢)

وقوله :

وما صبابةُ مشتاقٍ على أملٍ
من اللقاءِ كمشتاقٍ بلا أملِ(١٥٣)
تعينكِ ما يلقَى الفؤادُ وما لقِي
وللحبُّ ما لم يبقَ مني وما بقِي
واحلَى الهوى ما شكَّ في الوصلِ ربُّه
وفي الهجرِ فهو الدهرُ يرجو يتقي(١٥٤)

وقوله :

زيدي اذىً مهجتي ازدكِ هوىً
فاجهلُ الناسِ عاشقٌ حاقِدُه(١٥٥)

(١٤٨) المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص ١٥١ .
(١٤٩) الديوان ، ٤/٥٧ .
(١٥٠) الديوان ، ٣/٥٦ .
(١٥١) الدكتور احمد نصيف الجنابي ، اثر شعر المكوك في شعر المتنبي ، المورد ، ١٩٧٧/٣ ، ص ١٣٤ .
(١٥٢) الديوان ، ١/٥ .
(١٥٣) الديوان ، ٢/٢٤٦ .
(١٥٤) الديوان ، ٣/٥٦ .
(١٥٥) الديوان ٢/٢١٠ .

وقوله :

قد كانَ يمنعني الحياءُ من البكاء
فاليومَ يمنعه البكا ان يمنعَا(١٥٦)

وقوله :

فليتَ هوَى الاحبةِ كانَ عدلاً
فنحمِلَ كلُّ قلبٍ ما اطاقَا(١٥٧)

الا ترى معي في هذه الابيات اثر الحب وتباريح الهوى ؟ فلو انك رددتها مرة بعد اخرى ، فانك لاشك واجد ما افتقدته من رقة العبارة ، ولا تضح لك انه كابد الهوى ، فان كنت لا تزال تبعده عن ساحة المحبين ، فاليك رد ابي الطيب :

كم غرَّ صبرُكَ وابتسامُكَ صاحبا
لما رآكَ وفي الحشا ما لا يُرَى
امرَ الفؤادُ لسانَه وجفونَه
فكتمنه وكفى بجسمِكَ مخبِرا(١٥٨)

واما غلبة اسلوب العنف عليه ، فامر فيه نظر ، وربما صح ذلك احيانا ، ولكن افتقار غزله الى العبارة الرشيقة الخفيفة الراعشة في اغوار الكلمات ـ غالبا ـ حكم لا نرتضيه ، فلو قال احيانا ، لكان اقرب الى الصحة .

وخلاصة قول الذين ابو عليه ان يصغى الى قلبه ، وانه سلم من اغراءات المراة ليقع في اغراءات الدنيا .

وقبل ان اسدل الستار على راي هذا الفريق ارى من الضروري ان اضع حدا فاصلا بين تمنع المتنبي عن المراة بسبب العفة ، وبين ابتعاده عنها بسبب كرهه لها وعدم التجاوب معها . فالمتنبي كما ارى احب المراة وراي فيها الانسان الجميل ، وبث ذلك شعرا رقيقا في مطالع قصائده وبخاصة في صباه وكانت نظرته اليها مصدرها الاعتزاز بها والتقدير لها ، لذا عف عن مواصلتها ، واستغلال ضعفها ، وهو قادر على ذلك لان خلقه القويم واباء ، وعفته كل هذه كانت حاجزا بينه وبين الرذيلة :

وتَرَى الفتوةَ والمروءةَ والأبُو
ةَ في كلّ مليحةٍ ضرّاتِها

(١٥٦) الديوان ، ٢/٣ .
(١٥٧) الديوان ، ٣/٤٦ .
(١٥٨) الديوان ، ٢/٢١٨ .

هـــن الثـلاث المانعـاتي لذتي
في خلوتي لا الخوف من تبعاتها(١٥٩)

فعفته لم تمنعه من الحب البريء النزيه ، وانما منعته من اقتراب المحرمات .

كقوله :

إني على شغفي بمـــا في خمرها
لأعف عمـــا في سرا ويلاتهـا(١٦٠)

وقوله :

إذا كنت تخشى العـــار في كل خلوة
فليم تنصبك الحيـــان الخرائد(١٦١)

هذه الصفة التي عرفت عن المتنبي ، هي التي اوحت اليه بالابتعاد عن اللهو ومعاقرة الخمرة، وتتبع الرذيلة ، بل اضفت على شعره الغزلي الاتزان والوقار ، والحشمة ، وهي تتجلى باظهر صورها في قوله :

يرد يدا عـــن ثوبهـــا وهـــو قادر
ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد(١٦٢)

ان تلك العفة التي اصبحت تلازمه كظله في حياته ، سيطرت على عقله الباطن ، وتركته اسيرها حتى في نومه ، فهو يتفادى الرذيلة(١٦٣) ، ومن هنا شاعت عنه تلك المقولة ، كرهه للنساء وعدم حبه لهن ، وما الى ذلك من الادعات التي مرت بنا(١٦٤) .

ولقد انفرد ابو الطيب بهذا المسلك النزيه عن بعض اقرانه :

وما كل من يهـــوى يعف إذا خـــلا
عفافي ويرضي الحب والخيل تلتقي(١٦٥)

وكقوله :

والهـج تغنيي لغيـــر الخنســـا
بحب ذوات اللثمى والتهود(١٦٦)

فهو كما ترى مولع بهن ، يحب ذوات الشفاء السمر الناهدات ، ولكن لغير الفحش والفجور ، الموقفه هذا نجعله عدوا للمراة وننفي عنه الحب ؟

وللدكتور محمد شعيب تعليل لا يخلو من الغرابة عند حديثه عن حب ابي الطيب ، فهو يقول : « نحن نجد في تاريخ المتنبي ما يفسر لنا نزعته الى اسلوب الغزل واصطناعه في مقام المديح والرثاء(١٦٧) وغيرهما من المواقف ، ذلك ان حرمانه من امه صغيرا ، ثم معيشته الجافية ببطن الصحراء ورحلاته الكثيرة ، واسفاره الوفيرة ، التي لم يصحبه الا من فيهـــا ، وبعده عن اهله واسرته في معظم حياته ، وتعرضه للقتل مرارا ، وكثرة الخصوم من حوله ، خلق منه الشخصية التواقة للحياة الاسرية الظامئة الى الود والعطف ، والى الهدوء والاستقرار . ومن ثم كان في الغزل المتنفس الطبيعي للتعبير عن هذا الحنين الى تلك الحياة ، التي يسودها الحب ويعمرهـــا الوفاء ، ويسودها الامن والولاء »(١٦٨) .

ومصدر الغرابة في راي الدكتور شعيب انه يعزو تلك المطالع الغزلية الى حرمانه من امه صغيرا ... الخ . ولا اظن انه يجهل ان ذلك الغزل كان مذهبا من مذاهب الشعراء في ذلك العصر ، وضعت له القواعد وسنت له الاصول(١٦٩) . والمتنبي التزم

---

(١٥٩) الديوان ، ١/٢٥٨ .

(١٦٠) قال الصاحب بن عباد : « كانت الشعراء تصف المازر ، تنزيها لالفاظها عما يستشنع ذكره ، حتى تخطى هـذا الشاعر المطبوع الى التصريح ، الذي لم يهتد له غيره ، فقال : اني على شغفي ... البيت . وكثير من العهر أحسن من هذا العفاف . » (اليتيمة ١/١٦١) واضاف البرقوقي في شرحه : قال بعضهم : عما في سرابيلاتها ، جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمي . يريد المتنبي : اني مـــع حبي لوجههن ، اعف نـــن ابدانهن . (الديوان ، ١/٢٥٧) .

(١٦١) الديوان ، ١/٢٠٥ .

(١٦٢) المصدر السابق .

(١٦٣) وكاني بابي الطيب يعيش تجربة جميل في قوله :

لا والذي نسجد الجبـــاه لـــه
ما لي بمـــا دون ثوبهـــا خبـــر
ولا بفيهـــا ولا هممت بـــه
مـــا كان الا الحـــديث والنظـــر

نصار : ديوان جميل ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(١٦٤) انظر : السباعي بيومي ، المتنبي ونصيب الخيـــال والفلسفة فيـــه ، صحيفـــة دار العلوم ١٩٣٦/٢ ، ص ١٢٤ .

(١٦٥) الديوان ، ٣/٥٩ .

(١٦٦) الديوان ، ٢/٧٦ .

(١٦٧) الصواب : وغيرهما .

(١٦٨) الدكتور محمد شعيب : المتنبي بين ناقديـــه قديمـــا وحديثا ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(١٦٩) انظر : ابن الاثير : المثـــل السائر ، القسم الثالث ، ص ٩٦ وما يليها .

بعمود الشعر ايثارا لاسلوب القدامى ، وبخاصة وهو العربي الصميم ، الذي طالما فخر بعروبته ، وتعشق تقاليدها وتراثها ؛ فلا غرو ان يصدر مطالع قصائده بالغزل ، ثم يتخلص الى الغرض ، وربما يختمها بالدعاء .

وكفى بالدكتور شميب يجعل حب الفرد للحياة الاسرية مقتصرا على الذين فقدوا حنان الامومة ، والذين عاشوا معيشة ببطن الصحراء ، واكثروا من الرحلات والاسفار ، وتعرضوا للمخاطر والقتل ... الخ ، والواقع يخالف ذلك ، فالانسان بطبعه ميال الى الحياة الاسرية ، وتلك سنة الحياة ، بها تستمر البشرية ما اراد الله لها البقاء .

اما عن معيشته ببطن الصحراء ، فلا ارى انها كانت جافية ، فالمتنبي كان يحن اليها ، ويشتاق لتلك الايام ، ويهب اليها كلما اتاحت له الفرصة ذلك ، ووجد اليها سبيلا ، وليس ادل على ذلك من غزله في مطلع هذه القصيدة :

مَنِ الجاذرُ في زيِّ الأعاريبِ
حُمْرُ الحُلَى والمَطَايَا والجَلابيبِ[170]

« فنرى فيه حنينا الى حياته في شمال الشام، حيث البداوة اغلب من الحضارة ، وحيث البأس اظهر من اللين ، وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه »[171] .

تلك هي اراء الذين نفوا عنه الحب معززة بحججهم ، اما من جعله عاشقا احب وبث هواه بين السطور ــ مثل الدكتور المحاسني ــ دون ان يفرد له بابا خاصا في ديوانه فقد اعتمد على اماديحه لامير حلب التي « كشفت عن عشق طواه طويلا ، لكنه في شعره لم يستطع ان يخفيه ، فقد تملك حسه ، وسرى في ابياته انينا وشكوى ، فلما ماتت المحبوبة التي تعلقها ، دل رثاؤه اياها على لوعة لم تكن في غير الهائمين المعاميد ، فالمتنبي عرف العشق واقر به في شعره وردد من الفاظه ما اكد هواه ، فغزله اذن تعبير صادق ، ولم يكن تكلفا وتقليدا »[172] .

فالدكتور المحاسني جعله عاشقا دون ان يذكر الفتاة التي تعشقها ، وانما ذكر بعض القرائن الدالة عليها ، والاشارات والتلميحات التي اوضحت الهدف ، فهي خولة اخت سيف الدولة ، امير حلب، ذكرها الاستاذ محمد محمود شاكر في دراسة صافية عن حياة المتنبي ، عرض فيها علاقة ابي الطيب بها وحبه لها[173] . ويبدو ان الدكتور المحاسني استقى رايه منه دون الاشارة اليه ؛ واستدل على ذلك بورود مقال الاستاذ شاكر ضمن مصادر بحثه .

وخلاصة راي الاستاذ شاكر ، انه يرى ان المتنبي احب خولة اخت سيف الدولة ، عندما كان في حلب ، ويستدل على ذلك بـ « التجويد الفذ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروحنا في شعر الرجل نفحة من نفحات المراة التي تكون من وراء القلب ؛ وتصنع للشاعر المبدع بيانه ، وتتخذ من فنها النسوي مادة تهيئها لفن صاحبها وعبقريته ونبوغه .. الخ وهو في ظل سيف الدولة ، وجعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماء »[174] .

ويستدل على حبه لخولة بضعف غزله في شعره « فلهذا حين احب ابو الطيب ــ الرجل الثائر المتكبر الشاعر الحكيم ، البياني الفكر واللسان ــ كان امتداد نفسه وتراميها الى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر .

ولم يستطع ان يكون ــ بعد ان غلب الحب قلبه وتناسح به ــ شاعرا غزلا رقيق البيان ، وهذا هو السر عندنا في ضعف مادة الغزل عند ابي الطيب وقوة مادة الحكمة وما اليها ... الخ »[175] .

ثم يحاول تعيين المراة التي احبها المتنبي مستعينا برثائه لاخت سيف الدولة الصغرى في سنة اربع واربعين وثلاثمائة ، حيث فضل الكبرى عليها بقوله :

فاسمكَ المنونُ شخصين جورا
جَعَلَ القِسمُ نَفْسَهُ فيك عَدْلاً
فإذا قِسْتَ ما اخذن بما اعْـ
ـرِفْنَ سِرِّي عن الفؤادِ وسَلِّي
وتَيَقَّنْتَ انْ حَظَظْكَ اوْفَى
وتَبَيَّنْتَ ان جَدَّكَ اَعلَى[176]

---

(170) مطلع قصيدة قالها في مدح كافور سنة ست واربعين وثلاثمائة . الديوان ، ١٨٦/١ .
(171) طه حسين : من تاريخ الادب العربي ، المجلد الثالث ، ص ٢٨٥ .
(172) الدكتور زكي المحاسني : المتنبي ، ص ٤٨ .
(173) انظر : محمود محمد شاكر : ابو الطيب المتنبي ، المقتطف ، ٨٨ يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢١ وما يليها .
(174) المصدر السابق ص ، ١٢٩ .
(175) المصدر السابق ص ، ١٣٠ .
(176) وخلاصة الابيات الثلاثة : لقد قاسمك الموت شخصين ــ اختيه ــ فذهب بالصغرى ، وترك الكبرى ، فانت بافضل النصيبين ، لانك افضل المتقاسمين ، واذا قست ←

ومن رثائه لخولة اخت سيف الدولة في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة بقصيدته التي مطلعها :

يا اخت خير اخ يا بنت خير ابِ
كنايةً بهما عن اشرفِ النسبِ(١٧٧)

وما « تضمنته هذه الابيات من قصيدة ، من العاطفة التي عطفته على هذه التي يرثيها ، وما يتوهج في الفاظها من نيران قلبه .. الخ »(١٧٨) .

ثم يجد الدليل في البيتين :

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ
فزِعتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صِدقُه أملا
شرِقتُ بالدمعِ حتى كاد يشرَقُ بي(١٧٩)

« وقد غلب ابا الطيب بيانه في هذين البيتين ، فصرح فيهما بكل ما يضمر لخولة من الحب »(١٨٠) .

ويواصل حديثه مستدلا بشعره ، حيث ضعف فيه الغزل في حلب ، وظهرت فيه الرقة وهو في مصر(١٨١) ، والتناقض في قوله وهو يمدح ابن العميد(١٨٢) :

بادِ هواكَ صبَرتَ أم لم تَصبِرا
وبُكاكَ إنْ لم يجرِ دمعُكَ او جَرَى
كم غرَّ صبرُكَ وابتسامُكَ صاحِبا
لما رآكَ وفي الحشا ما لا يُرَى(١٨٣)

ويضيف « ان سيف الدولة كان على علم بما كان بين المتنبي واخته خولة من المحبة الغالبة على امرهما ، وانه كان وعد ابا الطيب عدة لم يوف له بها ، في ان يزوجه اخته هذه ، وكان ذلك سرا بينهما ، اتصل بابي فراس الحمداني ، فكان سببا في العداوة الباغية بين الرجلين »(١٨٤) .

ويستدل على علم سيف الدولة بتلك العلاقة ، ما تضمنته القصيدة من اشارات الى حبه لخولة ، كقوله :

ومَن مضتْ غيرَ موروثٍ خلائقُها
وإنْ مضتْ يدُها مَورُوثةَ النشَبِ
وهمُّها في العلا والمجدِ ناشئةً
وهمُّ أترابِها في اللهوِ واللعبِ
يعلَمْنَ حينَ تحيّا حسنَ مبسِمِها
وليس يعلمُ إلا اللهُ بالنشَبِ(١٨٥)

« فقد ذكر ابو الطيب اخلاق خولة ثم ذكر ما كانت عليه من علو النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ابتسامتها ؛ وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفة صحيحة عن خبرة ولقاء »(١٨٦) .

هذه باختصار ادلة الاستاذ محمود شاكر بشان حب المتنبي لخولة . وهي كما ترى لا تستند الى منطق مقبول ، وكلها حجج واهية ، فكون خولة جعلت من المتنبي حكيم الشعراء وشاعر الحكماء امر مرفوض ، لان ابا الطيب كان حكيما قبل ان يتصل بسيف الدولة ؛ والحكمة مبثوثة في ثنايا شعره ، قبل ان تطأ قدماء ارض حلب . اليس هو القائل في صباه:

ومن جاهلٍ بي وهو يجهَلُ جهلَهُ
ويجهلُ علمي انه بي جاهلُ(١٨٧)

الصغرى التي اخذتها المنية بالكبرى ، التي ابقتها لك ، وجدت في ذلك ما تتعزى به ، لانها ابقت لك احبهما اليك ، فانت اسعد حالا .
(الديوان ، ٢٠٦/٢) .

(١٧٧) الديوان ، ٩٩/١ .
(١٧٨) محمود شاكر : ابو الطيب . المقتطف ، ٨٨ يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٣ .
(١٧٩) الديوان ، ١٠١/١ .
(١٨٠) محمود شاكر ، ابو الطيب المقتطف ، ١٩٣٦/٨٨ ، ص ١٢٣ .
(١٨١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(١٨٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(١٨٣) والتناقض بين معنى البيت الاول ، حيث يقول ـ مخاطبا نفسه ـ هواك ظاهر للناس ، سواء اجرى دمعك ام لم يجر ، لان ما يبدو في الصوت من الحزن والاسى ، تسهولة الدليل على الحب . ومعنى البيت الثاني حيث يقول : كم غر صبرك وابتسامك صاحبا ، حتى لو نظر اليك لظنك غير عاشق ، فهو يرى الصبر والضحك ، ولا يرى الاحتراف والاسى في الباطن . (الديوان ، ٢١٧/٢) .
وجاء في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : قال ابو عبدالله : كان ابن العميد كثير الانتقاد على ابي الطيب فانه لما انشده هذا البيت ، قال : يا ابا الطيب ، تقول باد هواك ، ثم تقول بعده كم غر صبرك ؟ ما اسرع ما نقضت ما ابتدات به ! فقال : تلك حال وهذه حال . ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .
(١٨٤) المقتطف ٨٨ يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ .
(١٨٥) الديوان ، ١٠٢/١ .
(١٨٦) المقتطف ٨٨ يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ .
(١٨٧) الديوان ٣٦٤/٢ .

والقائل :

ذو العقلِ يَشقَى في النعيمِ بعقلِهِ
واخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنعَمُ
لا يَسلَمُ الشرفُ الرفيعُ مِنَ الأذَى
حتى يُراقَ على جَوانبِهِ الدَمُ
فإذا أصِبتَ بمثلِ ذلكَ فاصطبِر
فالمرءُ من شيَمِ النفوسِ فإنْ نَجَدْ
ذا عِفَّةٍ فلعِلَّةٍ لا يَظلِمُ(١٨٨)

والقائل :

ذَرِ النفسَ تأخُذْ وُسعَهَا قبلَ بينِهَا
فمُغتَرِقٌ جارانِ دارهُمَا العُمرُ
إذا الفضلُ لم يَرْفَعْكَ عن شكرِ ناقِصٍ
على هِبَةٍ فالفضلُ فيمن لَهُ الشكرُ
ومن يُنفِقُ الساعاتِ في جَمعِ مالِهِ
مَخافَةَ فقرٍ فالذي فَعَلَ الفَقرُ
وإني رأيتُ الشُكرَ احسَنَ مَنظَرًا
وأحسَنَ من مرأى صغيرٍ به كِبرُ(١٨٩)

والقائل :

ذَلَّ مَن يَغبِطُ الذَليلَ بعيشٍ
رُبَّ عيشٍ أخفَّ منهُ الحِمامُ
كُلُّ حِلمٍ أتى بغيرِ اقتدارٍ
حُجَّةٌ لاجئٌ إليها اللِئامُ
مَن يَهُنْ يَسهُلِ الهوانُ عليهِ
ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ(١٩٠)

هذه باقة من حكمه ، جاءت في ثنايا شعره ، قبل اتصاله بسيف الدولة ، وقبل ان يسمع باسم خولة ، ولو لا خوف الاطالة ، والخروج عن الموضوع الذي نحن بصدده ، لذكرت لك المزيد منها(١٩١) .

كما انني لا اوافق الاستاذ شاكر بشان ضعف غزل ابي الطيب في حلب بسبب حبه لخولة ، ان هذا الراي في غاية الغرابة ؛ لان الشاعر المحب العاشق يسرق غزله ويلين طبعه ، ويشف عن احاسيس مرهفة ؛ ولا سيما اذا كان الحب صادقا ؛ فكيف انعكست الاية مع المتنبي فضعفت مادة النزل عنده وقويت مادة الحكمة ان هذا الزعم يخالف ابسط قواعد المنطق ، ويبتعد عن الحقيقة ؛ وما سمعنا ان الحكمة كانت صدى العاطفة وناقوس الحب ،والمعبرة عن خلجات قلوب العشاق .

انني لا انكر ان غزل ابي الطيب في حلب مال الى الضعف والتكلف ، وظهرت الصناعة اللفظية في بعض قصائده ؛ وهذه الظاهرة دليل قاطع على ان المتنبي لم يقع في حب امراة ؛ وان خولة لم تعش في قلبه كما تصور الاستاذ شاكر ، ولو صح هذا الزعم لحدث العكس . واعزو سبب ضعف غزله الى الاكثار من المطالع الطللية ، والتوغل في حياة البداوة ، وتصوير حياة الصحراء مستعينا بقاموس الفاظها . مستفيدا من خبرته في كنف البادية في شبابه ؛ وكل ذلك طلبا لرضا ممدوحه سيف الدولة ، الذي عرف بتمسكه بالتراث العربي القديم ، وحبه له ، ولا غرو في ذلك ، فهو العربي الاصيل ، وهذا الاتجاه وجد هوى في نفس المتنبي ايضا ، فراح يغرق مطالعه بالوقوف على الديار ، والبكاء عليها ، واكثر من ذلك حتى اوقعه في التكلف والصنعة ، فضعف غزله(١٩٢) .

ثم يؤكد الاستاذ شاكر معرفة سيف الدولة ، علاقة المتنبي بخولة ، اذ لو لا علمه بذلك « لما استباح لنفسه ان يكتب هذه القصيدة مع كثرة الاشارات فيها الى امره وامر خولة ، والحب الذي بينهما»(١٩٣)

واستشهد ـ الاستاذ شاكر ـ بتلك الابيات من قصيدة الرثاء :

ومن مضت غير موروث خلائقها(١٩٤) ... الخ

والتي سبق ان اوردناها(١٩٥) في هذا البحث . « فقد ذكر ابو الطيب اخلاق خولة ؛ ثم ذكر ما كانت عليه من علو النفس والهمة منذ نشاتها ، ثم ذكر ابتسامتها ، وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفة صحيحة عن خبرة ولقاء »(١٩٦) .

ان هذه الابيات الثلاثة وما سبقها وما يليها ليس فيها اي رائحة للحب والبيت :

---

(١٨٨) الديوان ، ٣١٣/٤ .
(١٨٩) الديوان ، ٣٠١/٢ .
(١٩٠) الديوان ، ٢٧٤/٤ .
(١٩١) لزيادة الاحاطة بالموضوع انظر : الديوان ، ١٧٣/١ ، ٢٥٨/١ ، ١٢٢/٢ ، ١٢١/٣ ، ٤٥٦/٤ .
(١٩٢) بعض مطالعة الطللية في حلب ، انظر الديوان ، ٦١/١ ، ٧١/٣ ، ٥/٣ ، ٥٥/٤ ، ١٥٤/٤ .
(١٩٣) المقتطف ، يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ .
(١٩٤) انظر الديوان : ١٠٢/١ .
(١٩٥) انظر صفحة ٤٧ من البحث .
(١٩٦) المقتطف ، يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ .

يَعْلَمْنَ حين تُحَيّا حُسْنَ مَبْسِمِهَا

وليس يعلمُ إلاّ اللهُ بالشَّنَبِ

يدل على سوء تقدير الشاعر ، وقصر نظره ، وقلة ذوقه ؛ ـ في هذا المقام ـ والا فكيف اباح لنفسه ان يذكر حسن مبسمها والشنب وهو يعزي اخاها بوفاتها ؟

ولقد قال ابو بكر الخوارزمي(١٩٧) : « ولو عزاني انسان عن حرمة لي بمثل هذا لالحقته بها ، وضربت عنقه على قبرها »(١٩٨) .

والمتنبي كأي شاعر ، له كبوات وهفوات لا يحسد عليها ، ومن الغريب أن تكون له سابقة مماثلة في رثائه لام سيف الدولة بقوله :

بِعَيْشِكِ هل سَلْوَتِ فإنْ قلبي

وإنْ جَانبتُ ارضَكِ غيرُ سَالي(١٩٩)

وقال ابن جني : « هذا مما وضعه في غير موضعه ، ولا يجوز أن يرثي بمثل هذا»(٢٠٠) .

وقول المتنبي واضح انه يتشوق الى ام سيف الدولة ، ويظهر الحب لها ، فهل يصح ان نقول انه احب ام سيف الدولة ايضا ؟

انني لا اكتمك السر اذا قلت لك بانني لم اجد دليلا واحدا يمكن الاعتماد عليه والاخذ به ، فكل ما اورده الاستاذ شاكر افتراضات وتخمينات ، ومجرد حدس لا يسنده الواقع . والغريب في هذا الحب ان الشاعر لم يذكر الحبيبة ، وعلى مدى خمس عشرة سنة ـ اي منذ ان وطئت قدماه ارض حلب وحتى وفاتها ـ باسمها الصريح او بالتلميح او الاشارة اليها . ومهما يكن الشاعر متكتما متسترا ، فلابد ان يبوح باسم من احب ، ولو لمرة واحدة ، حتى عن طريق السهو او الخطأ .

ثم انني أتساءل ، اين هم خصوم المتنبي من اخفاقه في حبه الم يجدوا وسيلة للطعن به ، ولو بالرمز او بالاشارة ، ان لم يكن بالتصريح ؟ وهل من المنطق ان يكتم هذا الامر بعد ان اطلع عليه اكثر من شخص واحد ؟ ولقد اطلع عليه ابو فراس الحمداني، عدو المتنبي اللدود ، على راي الاستاذ شاكر ؟(٢٠١) .

واما شدة لوعته وحزنه التي ظهرت في رثائه لها(٢٠٢) ، « يمكن ان يفهم منها ان الشاعر يتحدث بان هذه الفقيدة برته واحسنت اليه عن بعد ، كما كانت تحسن الى غيره من القصاد واهل الادب ، وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون كلام شاعر »(٢٠٣) .

ويقول الدكتور احمد الجنابي : « واذا كان قد احب اخت سيف الدولة فيما يزعمون ، فانه قد احبها من خلال حبه لسيف الدولة ، واول شيء عندي قول المتنبي في سيف الدولة :

وآخرُ قلّبتَاهُ مِمّنْ قلبُهُ شَبِمُ

ومَنْ بجسمي وحالي عندَهُ سَقَمُ(٢٠٤)

وجل ابيات القصيدة بعد ذلك حوار داخلي ، يعبر عن اقوى آيات الحب الملتهب الموارب بالحركة والحياة .... وعندما نضع ابياته مع بائيته في اخت سيف الدولة :

يا اختَ خيرِ اخٍ يا بنتَ خيرِ ابٍ

كِنايةً بهمّا عن أشرفِ النسبِ(٢٠٥)

نجد الفرق واضحا ، فان نقطة الارتكاز فيها ـ وهي المطلع ـ تستند الى شرف النسب لا الى « قيم الحب » التي تنأى عن هذا المنطق ، فللحب قيم واسس تعرفها لغة العشاق ، وما ابعد فن المتنبي عن هذا المقام »(٢٠٦) .

وخلاصة ما تقدم ، انني انفي حب ابي الطيب لخولة ، بل انفي اية علاقة غرامية بينهما ، مستمدة من شعره ، الا ان هذا لا يمنع ان يكون المتنبي قد احب ، وهو في صباه ، وفي عنفوان شبابه ، حيث يجوب بادية الشام ، وصحراء العراق ، متنقلا بين القبائل والحواضر ، وهو الشاعر ذو الاحساس المرهف ، ولا استبعد ان احدى تلك الحسان استبدت بقلبه ، ولو لحين من الزمن ، فشعر بالشوق ، واكتوى بنار الهوى ، وفاض على لسانه ذلك الشعر

---

(١٩٧) هو محمد بن العباس ، الشاعر المشهور ، يقال له الطبرخزي ، لان امه كانت من خوارزم وابوه من طبرستان ، كان اوحد عصره في حفظ اللغة والشعر ، اقام بالشام مدة ، وسكن حلب وتوفي في بنيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .
(الصفدي : الوافي بالوفيات ٣/١٩١ ـ ١٩٤) .

(١٩٨) يتيمة الدهر ، ١/١٦٨ .

(١٩٩) الديوان ، ٣/١٧٠ .

(٢٠٠) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٢٠١) انظر المقتطف ، يناير ١٩٣٦ ، ص ١٢٤ .

(٢٠٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٢٠٣) طه حسين : من تاريخ الادب العربي ، المجلد الثالث ، ص ٢٠١ .

(٢٠٤) الديوان ، ٤/١٠٤ .

(٢٠٥) الديوان ، ١/٩٩ .

(٢٠٦) الدكتور الجنابي ، اثر شعر المكوك في شعر المتنبي ، المورد ٣/١٩٧٧ ، ص ١٢٤ .

الرقيق ، وظل يردد تلك الذكريات حتى اواخر حياته . وانني لا ازعم ذلك وانما اتوقعه ، مستمدا الراي من شغفه بالحسان وحبه لهن ، وخاصة البدويات منهن ، كقوله :

هَامَ الفُؤادُ بأعرابيةٍ سكَنَتْ
بيتاً من القَلبِ لم تَمْدُدْ لها طُنُبَا(٢٠٧)

وقوله :

ما اسارتْ في القَعْبِ من لَبَنٍ
تَرَكْتُهُ وهو المسكُ والعَسَلُ
قالت الا تَصْحُو فقلتُ لَهَا
اعلمتِني انَّ الهَوَى ثَمَلُ(٢٠٨)

وقوله في غير البدويات :

كتمتُ حُبَّكِ حتى منكِ تكْرِمَةً
ثم استوى فيكِ إسراري وإعلاني
كأنَّهُ زادَ حتى فاضَ من جَسَدي
فَصَارَ سُقمي بهِ في جِسمِ كتماني(٢٠٩)

والى حبه اشارات كثيرة ولا سيما في شبابه ، منها :

جَرَّبْتُ نارَ الهوى ما تَنْطَفي
نَارُ الغَضَى وتكلُّ عمَّا تُحرِقُ
وعَدَلْتُ اهلَ العشقِ حتى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كيف يموتُ من لا يَعْشَقُ
وعَذَرْتُهُم وعَرَفْتُ ذنبي انَّني
عَيَّرتُهم فَلَقِيتُ فيه ما لَقُوا(٢١٠)

ان هذه البساطة في التعبير ، او عدم التكلف ، في اداء المعاني ، وبالفاظ رقيقة عذبة . لهو دليل واضح على معاناة الشاعر وتجربته الصادقة ، فكل لفظة في هذه الابيات ، تعبير حقيقي لمعاناة الحب ، وهذه الصراحة المتناهية ، هي صراحة المحبين ، الذين يحبون التحدث عن انفسهم وعن حبهم بشوق واندفاع ، فالشاعر لا يرى باسا من الاعتراف بذنبه ، لانه بعد ان عاش تجربتهم ـ العشاق ـ واكتوى بنار الحب ، وعرف الحقيقة ، طفحت على لسانه شعرا رقيقا .

كما استدل على حبه بهذا النغم الرائع المنقطع النظير ، وتلك الموسيقى الراقصة ، التي تواكب تجارب العشاق ، فتسرى في شعرهم لحنا رقيقا ، كقوله :

جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمي في مَفَاصِلِي
فأصبح لي عن كلِّ شُغْلٍ بها شُغْلُ
كأن رقيبا منكِ سدَّ مَسَامِعي
عن العَذْلِ حتى ليس يَدْخُلُها العَذْلُ
كأنَّ سُهَادَ الليلِ يَعْشَقُ مُقْلَتَي
فبينهُمَا في كل هجرٍ لنا وَصْلُ(٢١١)

واستدل على حبه بتجاربه وخبراته ومعرفته بالنساء ، تلك المعرفة التي فاحت شعرا عذبا ، يفصل فيه اخلاق النساء باسلوب العارف العالم ببواطنهن . وما يكتمنه في قلوبهن ، وما يعتلج في صدورهن :

إذا غَدَرَتْ حَسناء وَفَّتْ بعَهْدِهَا
فَمِنْ عَهدِها ان لا يدومَ لها عَهْدُ
وإنْ عَشِقَتْ كانتْ اشدَّ صبابةً
وإنْ فَرِكَتْ فاذهب فما فركها قَصْدُ
وإنْ حَقَدَتْ لم يَبْقَ في قلبها رضاً
وإنْ رَضِيتْ لم يَبْقَ في قلبها حِقْدُ(٢١٢)

ان هذه الابيات هي خلاصة تجربته مع المراة ومعرفته لها ، وهي تعني انه جرب الحب ففشل ، فاحترق بنار الهوى ، ففاض على لسانه هذا السحر الحلال .

وجملة القول ان من نفى عن المتنبي العشق والغرام والهيام بالمراة ، لا يمكنه ان ينفي عنه الحب المعتدل ، ولا سيما في شبابه ، ذلك لتمتعه باحساس مرهف ونضوج وتكامل في الشخصية ، وعظم الرجولة ، كما ذكرنا ذلك في ادلتنا ، وهي كثيرة تجدها هنا وهناك ، مبثوثة بين ثنايا شعره .

---

(٢٠٧) الديوان ، ١/١٢٧ .
(٢٠٨) الديوان ، ٤/٢١ .
(٢٠٩) الديوان ، ٤/٤١١ .
(٢١٠) الديوان ، ٢/٨٩ .
(٢١١) الديوان ، ٣/٣٧٢ .
(٢١٢) الديوان ، ٢/١٢٣ .

كشف المصادر والمراجع

١ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

٢ ـ أبو الطيب المتنبي : الديوان : شرح البرقوقي ، ط. ثانية ، القاهرة ١٩٣٨م .

٣ ـ أبو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني : تصحيح الاستاذ الشنقيطي ، مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر .

٤ ـ امرؤ القيس : الديوان ، شرح حسن السندوبي ، ط رابعة ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٩ .

٥ ـ البديعي ، يوسف : الصبح المنبي عن حنيفة المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا والشتا ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ .

٦ ـ بلاشير ، ريجي : حياة أبي الطيب المتنبي وشعره ، المورد ٣ ، بغداد ١٩٧٧م .

٧ ـ بيومي ، والسباعي : غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، صحيفة دار العلوم ٣ القاهرة ١٩٣٦م .

٨ ـ الثعالبي : يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٤٧م .

٩ ـ ثعلب ، ابو العباس احمد : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ١٩٤٤م .

١٠ـ ثعلب ابو العباس احمد : شرح ديوان كعب بن زهير ، القاهرة ١٩٥٠م .

١١ـ الجرجاني ، علي بن عبدالعزيز : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد ابو الفضل وعلي البجاوي ، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٦٦م .

١٢ـ جميل بن معمر : الديوان ، تحقيق حسين نصار ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧م .

١٣ـ الجنابي ، دكتور احمد نصيف : اثر شعر المكوك في شعر المتنبي ، المورد ٣ بغداد ١٩٧٧م .

١٤ـ حسين ، دكتور طه : من تاريخ الادب العربي ، المجلد الثالث ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤م .

١٥ـ الحموي ، ياقوت : معجم الادباء ، منشورات دار المأمون ، القاهرة .

١٦ـ الحنبلي ، العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة المقدسي ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

١٧ـ دعبل الخزاعي : الديوان ، تحقيق الدكتور عبدالكريم الاشتر . مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق .

١٨ـ الدهان ، د. سامي : الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٤ .

١٩ـ الزركلي : الاعلام ، طبعة ثانية ، ١٩٥٦م .

٢٠ـ شاكر ، محمود محمد : ابو الطيب المتنبي ، المقتطف ، العدد ٨٨ ، يناير ١٩٣٦م .

٢١ـ شعيب ، دكتور محمد عبدالرحمن : المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٤م .

٢٢ـ جبري ، شفيق : المتنبي مالي، الدنيا وشاغل الناس ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ١٩٣٠م .

٢٣ـ طرفة بن العبد : الديوان ، تحقيق الدكتور علي الجندي، القاهرة ١٩٥٨م .

٢٤ـ عبيد بن الابرص : الديوان ، تحقيق الدكتور حسين نصار . الطبعة الاولى : القاهرة ١٩٥٧م .

٢٥ـ علوان ، حسن : المرأة في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم عدد ٣ القاهرة ١٩٣٦م .

٢٦ـ عمر بن أبي ربيعة : الديوان ، طبعة صادر ، بيروت .

٢٧ـ العميدي ، ابو سعيد محمد : الابانة عن سرقات المتنبي، تحقيق ابراهيم الدسوقي دار المعارف بمصر ١٩٦١م .

٢٨ـ كيلاني ، محمد سيد : مختار الشعر الجاهلي ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٩م .

٢٩ـ المحاسني ، الدكتور زكي : المتنبي ، نوابغ الفكر العربي، دار المعارف بمصر ١٩٥٦م .

٣٠ـ المقدسي : الفوائد الموضوعة في الاحاديث الموضوعة ، تحقيق الشيخ محمد الصباغ ، دار المربية في بيروت ، ١٩٧٧م .

٣١ـ مناهل الادب العربي : مختارات من النابغة الذبياني ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٣م .

٣٢ـ الصفدي ، صلاح الدين : الوافي بالوفيات ، الطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٣م .

٣٣ـ فيصل ، الدكتور شكري : تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ـ دمشق ١٩٥٩م .

٣٤ـ الالباني ، محمد ناصر الدين : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المكتب الاسلامي ، دمشق ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .